فن التعامل النبوي مع غير المسلمين

أ.د





رقم الإيداع: ٢٠١٠/٢٤٥٠٣

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

السرجاني ، راغب

فن التعامل النبوي مع غير المسلمين/ راغب السرجاني

القاهرة: دار أقلام للنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٠

ص ٢٥٦، ٢٤ سم

١- أخلاق الرسول ﷺ ٢- الإسلام والديانات الأخرى

أ. العنوان ٢٣٩,٦

مركز السلام للتجهيز الفني

عبد الحميد عمر

٠١٠٦٩٦٢٦٤٧



٣٢٩ ش بورسعيد - السيدة زينب القاهرة

عَـنِ ابْـنِ أَبِي لَـيْلَى أَنَّ قَـيْسَ بْـنَ سَـعْدٍ وَسَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ كَانَا بِالْقَادِسِـيَّةِ فَمَرَّتْ بِهِمَا جَنَازَةٌ فَقَامَا، فَقِيلَ لَهُمَا: إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ[1]. فَقَالاَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةٌ فَقَامَ، فَقِيلَ: إِنَّهُ يَهُودِيٌّ. فَقَالَ: «أَلَيْسَتْ نَفْسًا»[2].

---

(١) أي: جنازة غير مسلم من أهل تلك الأرض.

(٢) البخاري: كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي (١٢٥٠)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة، (٩٦١)، واللفظ له.



المقدمة

باسم الله والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد..

فإن التشريع الإسلامي قد بلغ الذروة في الكمال والإتقان، وإنه قد بلغ الغاية في الإبداع، ويكفي في وصف هذا التشريع المحكم ما ذكره ربنا في كتابه في أخريات ما نزل من القرآن الكريم عندما قال: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾

[المائدة: ٣].

فالدين كامل ليس فيه نقص، والنعم تامة لا يعتريها قصور، والتشريع لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وبيَّن حكمها وطريقة التعامل معها، يقول تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ ﴾[الأنعام: ٣٨]. ويقول الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه العرباض بن سارية رضي الله عنه: «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لاَ يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلاَّ هَالِكٌ»[1].

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه (٤٣)، وأحمد في مسنده (١٧١٨٢)، والحاكم في المستدرك (٣٣١)، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

ولا شكَّ أيضًا أن حياة رسولنا ﷺ كانت تطبيقًا عمليًّا لكل حُكم من أحكام الشريعة، فخرَّجت لنا هذه الحياة في شكلٍ بديعٍ، شمل كل المتغيرات التي من الممكن أن تقابل الفرد أو الجماعة، أو الأمة ككل.

فالرسول ﷺ تعامل في حياته مع كل الطوائف التي من المحتمل أن يتعامل معها المسلمون، ومر بكل الظروف التي من الممكن أن تمر بها الأمة الإسلامية؛ فهذه ظروف حرب وهذه ظروف سلم، وهذه أيام غنى، وهذه أيام فقر، وهذه فترات قوة، وهذه فترات ضعف.

ولقد شهدت السيرة النبوية إعجازًا إلهيًّا واضحًا جليًّا في تكثيف كل الأحداث التي من الممكن أن تواجه المسلمين في أي زمان وفي أي مكان، وذلك في ثلاث وعشرين سنة فقط؛ حتى يتحقق التوجيه الرباني الحكيم: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولقد تعامل رسول الله ﷺ مع كل الأمور التي واجهته بطريقة فذة، وبسنة مطهرة أخرجت لنا كنوزًا هائلة من فنون التعامل، ومن آداب العلاقات، وبرز في كل ذرة من ذرات حياته العنصر الأخلاقي، كعنصر مؤثر تمامًا على كل اختيار من اختياراته ﷺ، فلا يخلو -حقيقةً- أيُّ قول أو فعل له ﷺ من خُلُقٍ كريم، وأدب رفيع، بلغ إلى هذه الذروة، ووصل -بلا مبالغة- إلى قمة الكمال البشري، وهذا الذي نستطيع أن نفهم منه قوله ﷺ:

«إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»(١).

وهكذا فلا يخلو موقفٌ ولا حدثٌ ولا قولٌ، ولا ردُّ فعلٍ من بروزٍ واضح لهذه الأخلاق الحميدة، حتى في المواقف التي يصعب فيها تصور الأخلاق كعاملٍ مؤثرٍ، وذلك كأمور الحرب والسياسة، والتعامل مع الظالمين والفاسقين والمحاربين للمسلمين والمتربصين بهم.

لقد كانت معضلة حقيقية عند كثير من المتعاملين بالسياسة أن تنضبط تعاملاتهم بأُطُر أخلاقية وضوابط إنسانية، ولكن الدارس للسيرة النبوية، المتمعن في مواقفها يجد هذه الأطر وتلك الضوابط الأخلاقية واضحة في كل مواقف السيرة بلا استثناء.

ولا غرو، فهذا الخلق هو الذي وصفه الله عز وجل بالعظمة، حيث قال سبحانه وتعالى يخاطبه صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

ومن هنا فإن العظمة في سيرته صلى الله عليه وسلم لا حدود لها؛ فهي عظمة في النظرية، وعظمة أيضًا في التطبيق.. لقد أثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن القواعد المثالية الراقية التي جاءت في كتاب الله عز وجل ما هي إلا قواعد عملية قابلة للتطبيق، وأنها صالحة لتنظيم حياة البشر أجمعين، وأنها الدليل الواضح لمن أراد الهداية بصدق. كما كانت حياته صلى الله عليه وسلم ترجمة صادقة لكل أمر إلهي، وقد

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة رضي الله عنه (٤٢٢١)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وقال الذهبي في تلخيصه: على شرط مسلم. وكذلك رواه البيهقي في سننه (٢٠٥٧١)، وأورده الألباني في السلسة الصحيحة برقم (٤٥).

صَدَقَت ووُفِّقت أم المؤمنين عائشة[١] رضي الله عنها في وصف أخلاقه ﷺ عندما قالت: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»[٢].

لماذا يحاربون الإسلام؟

ومع كون هذه الأخلاق جليلة، وبرغم أن هذه الحياة النبيلة مسجَّلة وموثَّقة، إلا أن الكثير والكثير من البشر تجدهم يُنكرون ذلك ويكذبونه، بل إنهم يتجاوزون مرحلة الإنكار والتكذيب إلى ما بعدها من سبٍّ وقذفٍ وطعنٍ وتجريح!!

ويقف الإنسان أحيانًا حائرًا مدهوشًا أمام هذه التيارات المهاجمة للإسلام، والطاعنة في خير البشر، وسيِّد ولد آدم عليه السلام، ويتساءل متعجبًا: كيف لم تر أعينهم النور الساطع؟! وكيف لم تدرك عقولهم الحق المبين؟! وإن هذه الحيرة وتلك الدهشة لتزول، ويتلاشى معها العجب والاستغراب عندما ننظر في أحوال هؤلاء المنكرين المكذبين الطاعنين اللاعنين..

إنهم ما بين حاقد وجاهل..

أما الأول: فلا ينقصه علم ولا دراية، إنه رأى الحق بوضوح، ولكنه آثر -طواعيةً- أن يتَّبع غيره. أما لماذا خالف وأنكر فلأسباب كثيرة: فهذا

---

(١) هي أم المؤمنين عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما، زوج النبي ﷺ في الدنيا والآخرة. كانت أحب زوجاته ﷺ إلى قلبه، وكانت من علماء الصحابة، توفيت سنة ٥٨هـ. انظر: ابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (١١٤٤٩)، وابن الأثير: أسد الغابة ٦/ ١٩١.

(٢) رواه أحمد (٢٥٣٤١)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين. ورواه البخاري في الأدب المفرد (٣٠٨)، وصححه الألباني. انظر: صحيح الجامع (٤٨١١).

محبٌّ لدنياه، وذاك مؤثرٌ لمصالحه، وهؤلاء يتبعون أهواءهم، وأولئك يغارون ويحسدون.

إنها طوائف منحرفة من البشر لا ينقصها دليل، ولا تحتاج إلى حُجَّة، وفيهم قال ربنا ﷻ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]،

وهذه الطائفة تشمل أكابر المجرمين، ورءوس الفتنة والضلال، وأتباع إبليس اللعين، وهم موجودون في كل زمن، ولا يخلو منهم عهد نبي ولا صِدِّيق ولا صالح، فهم أعداء الخير في كل مكان، ودُعاة الإفساد والرذيلة في كل وقت وحين.

وهؤلاء -وإن كانوا يقفون في خندق إبليس- إلا إنهم يتخذون لأنفسهم قادة من البشر أشقياء، قد ماتت ضمائرهم، وفسدت فطرتهم، واسودَّت قلوبهم، وعميت أبصارهم، فاختاروا لأنفسهم ولأقوامهم طريق الضلال والغواية، وأعرضوا كل الإعراض عن كل دليلٍ يقود إلى خير، ووجَّهوا جُلَّ اهتمامهم إلى حرب المصلحين والشرفاء!

ومن هذا الفريق كان فرعون وهامان وقارون، ومنه كان أبو جهل وأُبي بن خلف وأبو لهب، ومنه كان كسرى وقيصر، ومنه كان حُيي بن أخطب وكعب بن الأشرف.

من هؤلاء من تزيَّا بزيِّ الملوك والسلاطين، ومنهم من تزيا بزي الأحبار والرهبان.. منهم من أمسك السيف وقاتل، ومنهم من أمسك

القلم وطعن.. منهم اليهودي والنصراني والمشرك والمجوسي، ومنهم الملحد الذي ينكر الألوهية أصلاً، بل إن منهم المسلم ظاهرًا المنافق باطنًا!! وما قصة عبد الله بن أبيّ ابن سلول عنَّا بخافية.

إنه فريق خطير يحتاج المسلمون دائمًا إلى كشف أوراقه، وإلى فضح مخططاته ومؤامرته، وإلى تحذير العالمين من شروره وآثامه.

ومع كون هذا الفريق على هذه الدرجة من الخطورة، إلا إنهم -بفضل الله- قلة، ولا يمثلون في تعداد المكذبين للدين، والطاعنين في الأنبياء والصالحين إلا قطراتٍ في يمٍّ واسع..

فمَن فرعون وهامان وقارون بالقياس إلى شعب مصر؟ ومن أبو جهل وأُبي بن خلف وأبو لهب بالنظر إلى شعب مكة؟ ومن كسرى إذا اطَّلَعْت على سكان العراق وفارس وما حولها؟ ومن هرقل في نصارى الشام والأناضول وأوربا..؟!

إن هذه الطائفة التي تقاتل الدين عن رغبةٍ وقصد، وتحارب الفضيلة والأخلاق عن عمدٍ ودراية، وتنهش في أعراض الصالحين وهي متلذذة مستمتعة - هذه الطائفة قليلة بالقياس إلى أعداد من يطعنون في الدين، ويحاربونه، ويصدون الناس عنه.

وإذا كان هؤلاء قلة، فتُرى من هم السواد الأعظم من المنكرين المكذبين؟!

إنهم الفريق الثاني الذي يتبع قادة الكفر والضلال، إنهم «عموم الناس»

الذين لم يعرفوا الدين من مصادره الصحيحة، إنما صُوِّر لهم على أنه بدعٌ منكرة، أو تقاليد بالية، أو أفكار منحرفة، فانساقوا كالقطيع وراء الأبالسة، وساروا في ركابهم إلى هاويتهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا!!

إنهم فريق الجُهَّال الذين ينقصهم العلم، أو البسطاء الذين يفتقرون إلى شرحٍ وتوضيح، أو حتى العقلاء الذين يحتاجون إلى دليلٍ وبرهان.

إن هذا الفريق الثاني يحتاج ببساطة إلى «العلم»!..

إنه لا يقاتل رغبةً في القتال، ولا يَسُبُّ حبًّا في السِّباب، ولا يهاجم الإسلام أو يطعن في رسول الله ﷺ عن عقيدةٍ وفكرٍ وتصميم.

إنهم المساكين من العوام!!

إنها الشعوب الهائلة، والأمواج المتلاطمة من البشر!!

إنهم «عموم الناس»!!

وراجعوا التاريخ وتدبروا صفحاته..

هل حاربت شعوب فارس الإسلام؟ أم أن ذلك حصل على يد كسرى وطائفة حوله من المنتفعين من الوزراء والأمراء ورجال الدين، ثم ثُلَّة من الجنود المقهورين؟ إن الشعب الفارسي ظل قرونًا وأعوامًا يؤمن أن إلهه النار، ويؤمن أيضًا أن قائدهم «كسرى» من سلالة مقدسة طاهرة، وأن الدين الصحيح هو دين مزدك[1] وأتباعه.

---

(١) مزدك: فيلسوف فارسي معروف، ظهر في أيام كسرى قباذ والد أنو شروان، ودعا قباذ إلى مذهبه فأجابه، واطَّلَع أنو شروان على افترائه فطلبه فقتله، وكان قد أحل النساء وأباح الأموال، وجعل الناس شركة فيهما.

ثم مرت الأيام وحُملت رسالة الإسلام بيضاء نقية إلى هؤلاء المساكين الغافلين، ورُفعت عن عيونهم الغشاوة، وأُزيل من آذانهم ما وضعه قادتهم وزعماؤهم من موانع السمع، ومن أسباب الضلال، فما هي إلا أيام معدودات حتى أدرك «عموم الناس» ما كانوا فيه من تخبط، وشاهدوا بعيونهم وعقولهم وقلوبهم عظمة التشريع وجمال الإسلام، واطَّلعوا عن قربٍ على أخلاق الرسول ﷺ الرفيعة، وعلى مواقفه وأقواله الحكيمة، فاختاروا الإسلام عن رغبةٍ وحبٍّ، لا عن إكراهٍ وغصب.

إننا -والله- لا نحتاج إلى إكراه في الدين، ولا نسعى إلى إرغام على عقيدة، فضلاً عن أننا مأمورون بالامتناع عنهما، قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

لقد تبيَّن لشعب فارس الرشد من الغي، لقد رأوا الحق وميزوا بينه وبين الباطل بوضوح، واختار جُل الشعب طريق الفطرة التي زرعها الله ﷻ في سويداء قلوب عباده، ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠]، وأسلم غالب شعب فارس، ولم يستمر في الإنكار والتكذيب والمقاومة إلا رءوس الكفر وأئمة الضلال.

وما قلناه عن شعب فارس ينطبق على شعوب الشام ومصر وشمال إفريقيا، بل وعلى نصارى الأندلس والأناضول وشرق أوربا، وكذلك ينسحب على شعوب شرق وغرب إفريقيا، وعلى إندونيسيا وأرض الملايو والهند وغيرها.

إن حجة الله بالغة، ودينه غالب..

لا بسيفٍ ولا سلاح، ولكن بدليلٍ وبرهان!!

إنه يكفيك أن تعرض رسالة الإسلام، وأن تشرح أحوال وأخلاق وطبائع النبي العظيم رسول الله ﷺ؛ فيكون هذا سبيلاً لهداية السواد الأعظم من الناس.

من هنا نفهم ما ذكره ربنا ﷻ في كتابه عندما حدَّد بوضوح وظيفة الأنبياء ومهمتهم حين قال: ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٣٥]. وقال: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور: ٥٤]. وقال أيضًا: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [المائدة: ٩٢].

ومثال ذلك في القرآن كثير، وحصره يصعب ويطول.

والسؤال المُلِحّ: ماذا يحدث إن قصَّر المسلمون عن حمل رسالتهم، وتوضيح شريعتهم، وشرح أخلاق نبيهم ﷺ؟!

إن هذا التقصير يفتح الباب لقادة الأفكار المنحرفة، ولأئمة الضلال والغواية أن يشرحوا الإسلام من وجهة نظرهم، وأن يُلبِّسوا على الناس دينَهم.

إن الناس تحتاج إلى قائدٍ ودليل، فماذا يحدث إن تكاسل المؤمنون عن دورهم في تعريف الناس بديننا وبرسولنا ﷺ وبأخلاقنا وقِيمنا؟!

يقول رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالاً، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»(١).

ومن هنا نفهم المقولة الرائعة الموفَّقة التي نطق بها الصحابي الجليل ربعي بن عامر(٢) وهو يشرح ببساطة دور المسلمين في الأرض، ومهمتهم في الحياة..

لقد قال في إيجاز حكيم: «الله ابتعثنا لنُخرِج مَن شاء مِن عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَور الأديان إلى عَدل الإسلام»(٣).

إنها المهمة الجليلة التي يجب أن يضعها المسلمون نُصب أعينهم على الدوام؛ إذ إنَّ جُلَّ من يُحاربنا لا يعرفنا، وغالب من يكرهنا لم يَطَّلِع على حقيقة أمرنا.

إننا نحتاج إلى إبراز مواطن العظمة والكمال في ديننا، وفي حياة نبينا ﷺ.. نحتاج أن نتحدث عن أنفسنا بأنفسنا، وأن نكتب عن أخلاقنا بأقلامنا، وأن نتحدث عن رسولنا ﷺ بألسنتنا.

---

(١) البخاري: كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم (١٠٠)، ومسلم: كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه (٢٦٧٣)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) ربعي بن عامر: صحابي جليل من صحابة النبي ﷺ شهد فتوح فارس، وبعثه سعد بن أبي وقاص إلى رستم رسولاً، وولاّه الأحنف لما فتح خراسان على طخارستان. انظر: ابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٢٥٦٧).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٧/ ٤٣.

لقد دخلتُ أكثر من مكتبة عملاقة في أوربا وأميركا لأرى الكتب التي تتحدث عن الإسلام أو عن رسولنا ﷺ باللغة الإنجليزية، فوجدت العشرات بل المئات، ولكن -يا للأسف- معظمها كُتبت بأيدٍ غير مسلمة!..

فقليل أنصف ودافع، وكثيرٌ ظَلَمَ وجَحَدَ وكَذَّبَ وافترى..

أين المسلمون؟!

أليس من ميادين الجهاد العظيمة أن يُكتب عن دين الإسلام وعن رسوله ﷺ ما يشرح الجمال والكمال والجلال لعباد الله أجمعين؟!

ألا يجب أن نغطي هذا المجال من كل جوانبه وبكل تفصيلاته؟!

ألا يجب أن نصل إلى الشعوب المسكينة التي أعماها الجهل، وغطَّى الرانُ على قلوبها، فما رأت عظمة الإسلام وأخلاقه وتشريعاته؟!

ألا يجب أن تُترجم كل هذه الفضائل إلى كل لغات العالم المشهورة وغيرها؛ حتى نقيم حجة الله تعالى على خلقه؟

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾[إبراهيم: ٤].

ألا نشعر بالحرج ونحن نرى «عموم الناس» يعيشون في حياتهم ليأكلوا ويشربوا ويتمتعوا فقط، وهم عن عبادة ربهم غافلون؟!

ألن يحاسبنا ربنا عن الملايين الذين زهدوا في الإسلام، وكرهوا رسولنا ﷺ لأنهم لم يسمعوا عنه إلا من وسائل الإعلام اليهودية وما شابهها، ولم

يقرءوا عنه إلا بأقلام المغرضين والملحدين؟!

إن المهمة بعدُ ثقيلة، والتبعية جِدُّ عظيمة..

إن العالم يحتاج لكمال شريعتنا، ويفتقر إلى قيادة رسولنا ﷺ، وليست مهمة البلاغ بالهينة؛ فالأعداء متربصون، وإبليس لا يهدأ، والمعركة على أشدها، ومع ذلك فنُصْب أعيننا قول ربنا يُثَبِّتَ قلوبنا، ويرسخ أقدامنا: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف:٢١].

وبين أيدينا هذا الكتاب -الذي أسأل الله أن يجعله خالصًا لوجهه- نفتح فيه صفحةً واحدةً من الصفحات الباهرة في ديننا، وفي سيرة رسولنا الكريم ﷺ. نَصِف فيها كيف تعامل الرسول الأعظم والنبي الأكرم محمد ﷺ مع غير المسلمين.

إنها صفحة بيضاء نقية، ما أحسب أن الفلاسفة والمنظِّرين والمفكرين قد تخيلوا مرة في أحلامهم أو أوهامهم أنها يمكن أن تكون واقعًا حيًّا بين الناس، حتى إن أفلاطون[1] في جمهوريته والفارابي[2] في مدينته الفاضلة،

---

(١) أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ ق. م): فيلسوف ومعلم يوناني قديم، يُعَدُّ واحدًا من أهم المفكرين في تاريخ الثقافة الغربية، حتى إن الفلسفة الغربية اعتبرت أنها ليست إلا حواشي لأفلاطون. وكلمة (أفلاطون) كنية تعني ذا الكتفين العريضتين، أما اسمه الحقيقي فهو «أرستوكليس». من أشهر كتبه: جمهورية أفلاطون.

(٢) أبو نصر محمد الفارابي (٢٦٠ - ٣٣٩هـ): فيلسوف أتقن علوم الفلسفة، وبرع في العلوم الرياضية، وكذلك الطب وإن لم يمارسه. يُنسب إلى فاراب، وهي جزء مما يعرف اليوم بتركستان. من أشهر كتبه: المدينة الفاضلة.

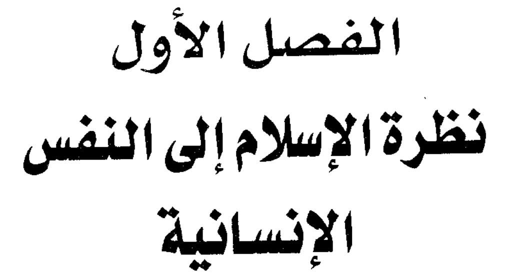
وتوماس مور[1] في مدينته الفاضلة الثانية (اليوتوبيا) لم يصلوا في الأحلام والتنظير إلى معشار معشار ما كان عليه رسولنا ﷺ في حقيقته وواقعه.

وأحب أن أُنبِّه أنني سأتناول في هذا الكتاب تعامل النبي ﷺ مع غير المسلمين من المسالمين المعاهدين، ولن أتناول الحديث عن أعدائه أو الأسرى؛ ذلك لأنهم ليسوا أفرادًا في المجتمع المسلم، وسوف نُفْرِد لهم كتابًا قادمًا إن شاء الله تعالى.

ويا ليت المسلمين يدركون قيمة ما في أيديهم من كنوز فيدرسونها ويُطبِّقونها، ثم ينقلونها إلى مشارق الأرض ومغاربها؛ ليسعدوا وتسعد بهم البشرية، وليكونوا سببًا في هداية الناس لرب العالمين.

* * *

(١) توماس مور: قديس وفيلسوف وسياسي إنجليزي، اشتهر بكتابه المدينة الفاضلة (اليوتوبيا). ولد سنة ١٤٧٨م، وتوفي سنة ١٥٣٥م.



الفصل الأول

نظرة الإسلام إلى النفس الإنسانية



لعل من المهم أن نُدرك طبيعة النظرة الإسلامية إلى النفس الإنسانية بصفة عامة؛ لندرك كيف تناول المنهج الإسلامي قضية غير المسلمين وكيفية التعامل معهم.

إن النفس الإنسانية بصفة عامة مُكَرَّمَةٌ ومُعَظَّمَة.. وهذا الأمر على إطلاقه، وليس فيه استثناء بسبب لون أو جنس أو دين، قال تعالى في كتابه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وهذا التكريم عام وشامل، وهو يلقي بظلاله على المسلمين وغير المسلمين؛ فالجميع يُحمل في البر والبحر، والجميع يُرزق من الطيبات، والجميع مُفضَّلٌ على كثيرٍ مِن خلْق الله ﷻ.

وقد انعكست هذه الرؤية الشاملة لكل البشر، وهذا التكريم لكل إنسان على كل بندٍ من بنود الشريعة الإسلامية، وبالتالي انعكست هذه الرؤية الشاملة على كل قولٍ أو فعل لرسولنا ﷺ.. وهذا يفسر لنا الطريقة الراقية الفريدة التي تعامل بها الرسول العظيم ﷺ مع المخالفين له، والمنكرين عليه.

إنه يتعامل مع نفوس بشرية مُكرَّمة، فلا يجوز إهانتها أو ظلمها، أو التعدي على حقوقها، أو التقليل من شأنها، وهذا واضح بَيِّن في آيات

القرآن الكريم، وكذلك في حياة الرسول ﷺ

يقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١].

فالأمر هنا عام، يشمل نفوس المسلمين وغير المسلمين؛ فالعدل في الشريعة مطلق لا يتجزأ.

وما أجمل ما ذكره القرطبي[١] رحمه الله تعليقًا على هذه الآية عندما قال: «وهذه الآية نهيٌ عن قتل النفس المحرمة، مؤمنة كانت أو معاهدة، إلا بالحق الذي يوجب قتلها»[٢].

ثم ذكر رحمه الله عدة أحاديث نبوية تشير إلى هذا المعنى، منها -على سبيل المثال- ما رواه أبو بكرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، قال: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا فِي غَيْرِ كُنْهِهِ، حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»[٣].

فالشريعة تأبى الظلم في كل صوره، والنهي عن ذلك واضح في آيات وأحاديث لا تُحصى، وهو مرفوض إلى يوم القيامة.. بل يقول الله ﷻ في

---

(١) محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي المالكي القرطبي، من كبار المفسرين، وهو صاحب التفسير المشهور (الجامع لأحكام القرآن). مات بمنية بني خصيب من الصعيد الأدنى في مصر سنة ٦٧١هـ. انظر: الزركلي: الأعلام ٥/ ٣٢٢.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٧/ ١٣٢.

(٣) أبو داود (٢٧٦٠)، والنسائي (٤٧٤٧)، وأحمد (٢٠٣٩٣)، والدارمي (٢٥٠٤)، والطيالسي (٨٧٩)، والحاكم (٢٦٣١)، وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي. وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٦٤٥٦).

صفة الحساب يوم القيامة: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء: ٤٧].

والأمر هنا على إطلاقه أيضًا؛ فلن تظلم «نفس» يوم القيامة، أيًّا كانت هذه النفس، مؤمنة بالله أو كافرة به، مسلمة كانت أو نصرانية أو يهودية، أو غير ذلك من الملل والنحل الأخرى.

إن الظلم شيءٌ مقيت، وإن الله ﷻ قد حرَّمه على نفسه ﷻ، وحرمه أيضًا على كل عباده؛ فيروي أبو ذر ﵁ عن النبي ﷺ فيما روى عن ربه ﷻ أنه قال: «يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا»[1].

هذه هي النظرة الإسلامية الحقيقية لكل البشر، إنها نظرة التقدير والاحترام والتكريم.

وما أبلغ وأروع الموقف الذي علَّمَنا إياه رسول الله ﷺ عندما مرت به جنازة يهودي!!

فقد روى الإمام مسلم عن ابن أبي ليلى أَنَّ قَيْسَ بْنَ سَعْدٍ وَسَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ كَانَا بِالْقَادِسِيَّةِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا جَنَازَةٌ، فَقَامَا، فَقِيلَ لَهُمَا: إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ

(١) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧)، وأحمد (٢١٤٥٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٩٠)، وابن حبان (٦١٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٠٨٨)، والسنن الكبرى (١١٢٨٣).

الأَرْضِ[١]. فَقَالا: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ مَرَّتْ بِهِ جَنَازَةٌ فَقَامَ، فَقِيلَ: إِنَّهُ يَهُودِيٌّ، فَقَالَ: «أَلَيْسَتْ نَفْسًا»[٢].

ألا ما أروع هذا الموقف حقًّا!!

هذه هي النظرة الإسلامية للنفس البشرية..

إن رسول الله ﷺ في هذا الموقف زرع في نفوس المسلمين التقدير والاحترام لكل نفس إنسانية، وذلك على الإطلاق؛ لأنه فعل ذلك وأمر به، حتى بعد علمه أنه يهودي.

فإذا أخذنا في الاعتبار أن هؤلاء اليهود قد عاصروا رسول الله ﷺ، ورأوا الآيات، واستمعوا إلى الحجج الدامغة والبراهين الساطعة، ثم لم يؤمنوا، بل إنهم اعتدوا عليه ﷺ بشتى أنواع الاعتداءات المعنوية والمادية، ومع كل هذا التعنُّت اليهودي إلا أن رسول الله ﷺ يقف لجنازة رجلٍ منهم، وهو رجل غير معروف؛ لكيلا يقال إنه -أي اليهودي- أسدى معروفًا مرة للمسلمين أو كان ذا خلق حسن، ودليل أنه غير معروف أن الصحابة عيَّنوه بصفته لا باسمه، ثم إن رسول الله ﷺ برَّر وقوفه بقوله: «أَلَيْسَتْ نَفْسًا»، ولم يذكر فضيلة معينة له.

إنه الاحترام الحقيقي للنفس البشرية..

---

(١) أي: من مجوس فارس.

(٢) البخاري: كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي (١٢٥٠)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة (٩٦١)، واللفظ له.

وهذا الاحترام لم يكن للحظة عابرة، بل طال وقوف رسول الله ﷺ حتى اختفت الجنازة؛ ففي رواية مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «قَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ لِجَنَازَةِ يَهُودِيٍّ حَتَّى تَوَارَت»[1].

وتخيل معي هذا الموقف الجليل وجنازة اليهودي تمرُّ، والرسول ﷺ وأصحابه ما زالوا واقفين!

إن هذا الموقف قد رسَّخ في أذهان الصحابة -والمسلمين من بعدهم- أن الإسلام يحترم كلَّ نفس بشرية ويقدرها ويكرمها، وهذا الذي دفع قيس بن سعد[2] وسهل بن حنيف[3] رضي الله عنهما أن يقفا لجنازة رجل مجوسي يعبد النار!

فالمجوسي هذا ليس كتابيًّا أصلاً، وهو على عقيدة مخالفة تمامًا لدين الإسلام، بل إنه من قوم محاربين، ومع ذلك فالصحابة رضي الله عنهم يدركون قيمة النفس البشرية فيُكَرِّمونها ويقفون لها.

---

(١) مسلم: كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة (٩٦٠)، والنسائي (١٩٢٨)، وأحمد (١٩٢٨)، والبيهقي في سننه (٦٦٧٠).

(٢) هو قيس بن سعد بن عبادة، أحد دهاة العرب وأهل الرأي والمكيدة في الحروب، وكان شريف قومه، وكان من النبي ﷺ بمكان صاحب الشرطة من الأمير، وقد أعطاه رسول الله ﷺ الراية يوم فتح مكة، ومات بها سنة ٦٠ أو ٥٩هـ. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٤/ ٢٧٢، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٧١٧٦)، وابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ٣٥٠.

(٣) هو سهل بن حنيف بن واهب، شهد بدرًا وكل المشاهد مع رسول الله ﷺ، وثبت يوم أحد، استخلفه علي رضي الله عنه حين خرج من المدينة إلى البصرة، كما شهد مع علي صفين وولاه على فارس. مات بالكوفة سنة ٨٨هـ. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/ ٢٢٣، وابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ٣٣٥، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٥٣٢٣).

هذه هي نظرتنا لغير المسلمين، وهذه هي الخلفية التي يضعها المسلمون في أذهانهم عن التعامل مع غير المسلمين.

ثم إن هناك خلفية أخرى مهمة تحكم تصور المسلمين للمخالفين لهم في الاعتقاد، والمغايرين لهم في المبادئ، وهي أن الاختلاف بين الناس أمر محتمل جدًّا، بل هو حتمي! ولن يوجد زمانٌ أبدًا يتفق فيه العالمون على رأي واحد في قضية ما، بما فيها قضية الألوهية والتوحيد.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨].

فالمسلم يقبل ببساطة أن يوجد مخالفون له في العقيدة، ويعلم أن اختفاءهم من الأرض مستحيل؛ ولذلك يتعايش معهم بشكل طبيعي، وخاصة أن الشريعة الإسلامية توضح بجلاء أُطُر التعامل وآليات التفاهم مع الطوائف المختلفة من غير المسلمين.

فإذا أضفت إلى هذه الخلفيات أن المسلم يعتقد اعتقادًا جازمًا أن الحساب يوم القيامة بيد الله ﷻ وحده، وأنه إذا أراد إنسانٌ الإيمان أو الكفر فإن ذلك متروك له، وحسابه عند ربه يوم الحساب، إذا أضفت هذا إلى الخلفية الفكرية للمسلمين، أدركت أنه لا داعي مطلقًا للمسلم أن يفكر في إجبار الآخرين على اعتناق الإسلام، أو إكراههم على تغيير دينهم.. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

إن مهمة المسلم ببساطة أن يصل بدعوته نقية إلى غير المسلمين، أما ردود أفعالهم تجاه هذه الدعوة فلا يُسأل عنها المسلم ولا يُحاسَب.. قال تعالى: ﴿ وَإِن جَـٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[الحج: ٦٨، ٦٩].

من هذا المنطلق، ومن واقع تقدير الشرع الإسلامي «لكل نفس»، وتكريم الله ﷻ لكل بني آدم، جاءت أوامر الشريعة الإسلامية الخاصة بالعدل والرحمة والألفة والتعارف، وغيرها من فضائل الأخلاق.. جاءت كل هذه الأوامر عامة تشمل المسلمين وغير المسلمين، ولم تكن يومًا كما فعل اليهود بتحريفهم في التوراة؛ فخصُّوا بالمعاملات الحسنة اليهود وحدهم، وأباحوا الموبقات كلها في حق غيرهم!!

في شريعتنا الإسلامية تجد مثلاً قول الله ﷻ في مسألة الرحمة يقول: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. فليست الرحمة هنا خاصة بالمسلمين، إنما هي عامة لكل البشر على اختلاف أديانهم ومللهم.

وفي مسألة التعارف يقول تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ [الحجرات: ١٣]. فلم يقتصر التعارف أيضًا على طائفة معينة، إنما اتسع ليشمل كل الشعوب والقبائل.

والرزق في الأرض مكفولٌ لكل البشر، والكون مسخرٌ للإنسانية

جمعاء، دون تفرقة بين مؤمن وكافر. يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

[الحج: ٦٥].

فهذا التسخير للأرض والفُلك والبحار والسماء لكل البشرية، والتعليق الختامي على الآية يوضح أن الرأفة والرحمة لكل الناس.

وفي مسألة العفو قال الله ﷻ: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤]. فالعفو من صفات المؤمن، ولكن هذا العفو الذي نراه في هذه الآية ليس خاصًّا بالمسلمين فقط، إنما هو عفوٌ واسعٌ يشمل «الناس» كما ذكر ربنا ﷻ، وهو بذلك يشمل المسلمين وغير المسلمين.

بل أكثر من كل ذلك، أنه عندما ذكر ﷻ أمْرَ العدل المأمور به في الإسلام، لم يجعله عدلاً خاصًّا بالمؤمنين وحدهم، ولم يجعله عدلاً خاصًّا بالبشر المحايدين فقط، مسلمين كانوا أو غير مسلمين.. وإنما حضَّ وأَمَر أن يكون العدل حتى مع من نكره من الناس!!

قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟

هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

[المائدة: ٨].

هذه النظرة المتناهية في الرحمة والألفة والعدل والتسامح تفسِّر لنا الأخلاق النبيلة التي كان عليها رسولنا ﷺ.. لقد كان متبعًا للشرع في كل خطوة من خطوات حياته.

ومن اللافت للنظر حقًّا أن رسول الله ﷺ كان يفعل كلَّ ذلك في زمانٍ نَدَرتْ فيه أخلاق الفرسان، وعزَّت فيه طبائع النبلاء.

ويكفيك أن تراجع بعض الأوامر والقوانين في التوراة المحرَّفة التي كانت موجودة في عصر رسولنا ﷺ -وما زالت إلى زماننا هذا- لتدرك البون الشاسع بين التشريع الإسلامي المحكم، وبين الافتراءات البشرية التي دُسَّت بين صحائف التوراة..

ففي سفر يشوع -مثلاً- تجد في طريقة تعامل اليهود مع غيرهم ما يلي: «ثم تحرك يشوع وجيش إسرائيل من لخيش نحو عجلون فحاصروها وحاربوها واستولوا عليها في ذلك اليوم ودمروها، وقضوا على (كل نفس) فيها بحد السيف، على غرار ما صنعوا بلخيش. ثم اتجه يشوع بقواته من عجلون إلى حبرون وهاجموها، واستولوا عليها ودمروها مع بقية ضواحيها التابعة لها، وقتلوا ملكها و(كل نفس) فيها بحد السيف، فلم يفلت منها ناجٍ، على غرار ما صنعوا بعجلون. وهكذا قضوا على (كل نفس) فيها، ثم عاد يشوع إلى دبير وهاجموها واستولى عليها ودمرها مع ضواحيها، وقتل

ملكها (وكل نفس) فيها بحد السيف، فلم يفلت منها ناجٍ، فصنع بدبير وملكها نظير ما صنع بلبنة وملكها»[1].

لقد عكس هذا التزوير نفسيَّة اليهود وطبيعتهم، فهذه هي صورة الأنبياء عندهم يقتلون «كل نفس» غير يهودية!

ويؤكد هذه النظرة المنحرفة للنفس البشرية ما جاء في سِفر العدد، حين يصف رد فعل موسى عليه السلام -وحاشاه- لما رأى بعض جيوشه قد أبقت النساء والأطفال على قيد الحياة، واتخذوهم أسيرات وأسرى فقال لهم: «لماذا استحييتم[2] النساء؟! إنهن -باتباعهن نصيحة بلعام- أَغْوَين بني إسرائيل بعبادة فغور، وكُنَّ سبب خيانة الرب فتفشى الوباء في جماعة الرب، فالآن اقتلوا (كل ذكر) من الأطفال، واقتلوا أيضًا كل امرأة ضاجعت رجلاً، ولكن استحيوا لكم كل عذراء لم تضاجع رجلاً»[3]!!

وأمثلة هذه العدوانية كثيرة جدًّا، سواءٌ في العهد القديم أو الجديد، وليس المجال الآن للحصر، ولكن لتوضيح أن عظمة التشريع الإسلامي ورحمته وعدله وتسامحه تتجلى بصورة أكبر وأكبر، عندما نعرف أن هذا التشريع المحكم نزل في زمانٍ وُجدت فيه مثل هذه التوجُّهات العدوانية والافتراءات المخزية.

وليس معنى أن الإسلام إذ ينظر هذه النظرة المتقبِّلة للاختلاف إلى

---

(١) سفر يشوع، ويُكتب في بعض النسخ يوشع ١٠/ ٣٤-٣٩.
(٢) استحيا الأسير: تركه حيًّا فلم يقتله. المعجم الوسيط ١/ ٢١٣.
(٣) سفر العدد ٣١/ ٧-١٨.

الأديان الأخرى، أنه ليس حريصًا على دعوتهم إلى الحق الذي يراه.. بل على العكس من ذلك، كان رسول الله ﷺ يرجو الإسلام حتى لألدّ أعدائه، برغم شرورهم ومكائدهم..

ها هو يخص بالدعاء رجلين من ألد أعدائه: أبو جهل وعمر بن الخطاب -قبل أن يسلم- فيقول: «اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلاَمَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ: بِأَبِي جَهْلٍ، أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ»، فَكَانَ أَحَبُّهُمَا إِلَى اللهِ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ[1].

إن التاريخ الطويل من الصد عن سبيل الله، وفتنة المسلمين عن دينهم، لم يورث في قلب رسول الله ﷺ شعورًا بالانتقام، أو رغبة في الكيد أو التنكيل، إنما على العكس تمامًا، شعر بأنهم مرضى يحتاجون إلى طبيب، أو حيارى يحتاجون إلى دليل، فجاءت هذه الدعوة لهم بالهداية وبالعزة وبالنجاة.

كانت تلك هي نفسيته ﷺ، وكانت تلك هي سنَّته وطريقته، وكانت هذه هي خلفياته ومرجعيته في التعامل مع الناس.

إن رسولنا الكريم ﷺ كان حريصًا كل الحرص على إيصال دعوته إلى كل من هو على غير الإسلام؛ فحملها إلى كل مشرك أو يهودي أو نصراني أو مجوسي، وكان يبذل قصارى جهده في الإقناع بالتي هي أحسن، وكان

---

(١) الترمذي: كتاب المناقب، باب في مناقب عمر بن الخطاب (٣٨٦٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر. وأحمد (٥٦٩٦)، والحاكم (٤٤٨٥) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وقال الألباني: حسن صحيح. انظر: مشكاة المصابيح (٦٠٣٦).

يحزن حزنًا شديدًا إذا رفض إنسانٌ أو قومٌ الإسلامَ، حتى وصل الأمر إلى أن الله ﷻ نهاه عن هذا الحزن والأسى..

قال تعالى يخاطبه ﷺ: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣]. ويقول أيضًا: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ [فاطر:٨].

ومع شدة هذا الحزن إلا أن الرسول ﷺ لم يجعله مبررًا للضغط على أحد ليقبل الإسلام، إنما جعل الآية الكريمة ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. منهجًا له في حياته، فتحقق في حياته التوازن الرائع المعجز؛ إذ إنه يدعو إلى الحق الذي معه بكل قوة، ولكنه لا يدفع أحدًا إليه مُكْرَهًا أبدًا.

ألا ما أروع ما قاله ﷺ يلخص به نظرته إلى عموم الناس..

يروي أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا»(١).

إنها نظرة الرحمة والرعاية لا القهر أو التسلط..

وسبحان الذي رزقه ﷺ هذا الكمال في الأخلاق!

* * *

(١) البخاري: كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي (٦١١٨)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب شفقته ﷺ على أمته (٢٢٨٤).

الفصل الثاني
الاعتراف بغير المسلمين



يدَّعي بعض المتحاملين على الإسلام والمسلمين أن المسلمين لا يعترفون بالمخالفين لهم في العقيدة، ولا يقرُّون بوجود اليهود والنصارى وغيرهم كطوائف لها كينونة تكفل لها البقاء إلى جوار المسلمين.

وأنا أقول: إن هذا الادِّعاء ما هو إلا نوع من الإسقاط[1] المعروف لدى علماء النفس، وهو اتهام الغير بما في النفس، أو كما قال العرب: «رمتني بدائها وانسلت»[2].

مَن الذي لا يعترف بمن؟!

راجعوا قصة الإسلام منذ بدايته لتعرفوا مَن الذي لا يعترف بمن؟ ومَن الذي يُنكر مَن؟!

إننا في هذه الصفحات القادمة سنعرض -إن شاء الله- لدراسة سريعة لأحداث السيرة النبوية؛ لنستشفَّ منها الإجابة على هذه الأسئلة، وسيكون ذلك من خلال مبحثين:

المبحث الأول: اعتراف الرسول ﷺ بغير المسلمين

المبحث الثاني: هل يعترف غير المسلمين بالمسلمين؟!

(١) الإسقاط هو حيلة دفاعية ينسب فيها الفرد عيوبه ورغباته المحرمة والعدوانية أو الجنسية للناس؛ حتى يبرئ نفسه ويبعد الشبهات عنها، فالكاذب يتهم معظم الناس بالكذب، وهكذا.

(٢) قال المفضَّل: سبب هذا المثل أن سَعْد بن زَيْد مَنَاة كان تزوج رُهْمَ بنت الخزرج بن تَيْم الله، وكانت من أجمل النساء فولدت له مالك بن سعد، وكانت ضرائرها يكثرن من سبِّها، فقالت لها أمها: إذا سابَبْنَكِ فابدئيهن، فسابتها بعد ذلك امرأة من ضرائرها، فسبتها رُهْم، فقالت ضرتها: رمَتْنِي بدائها وانْسَلَّتْ. انظر: أبو الفضل الميداني: مجمع الأمثال ١/ ١٠٢.

المبحث الأول

اعتراف الرسول ﷺ بغير المسلمين

منذ الأيام الأولى لهذه الدعوة الإسلامية الكريمة، والقرآن يتنزل على رسول الله ﷺ يشرح له قصص الأنبياء الذي سبقوه، ولا يكتفي القرآن بذكر أخبارهم دون تعليق، بل إنه على الدوام يعظِّم ويبجل من شأن كل الأنبياء، وبلا استثناء.

وقد استمر هذا النهج الكريم في المدينة المنورة حتى بعد الصراعات التي دارت بين المسلمين اليهود تارة، وبينهم وبين النصارى تارة أخرى، وما توقَّف القرآن عن الثناء على أنبياء الله ﷻ، وفي مقدمتهم موسى وعيسى -عليهما السلام- أنبياء اليهود والنصارى..

فهذا هو القرآن المكي يتحدث عن موسى عليه السلام -على سبيل المثال- فيقول: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص: ١٤].

ويقول أيضًا: ﴿ ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤]. ومثال ذلك كثير جدًّا في القرآن الكريم.

والأمر كذلك بالنسبة لعيسى عليه السلام، فتجد القرآن المكي يُمجِّد قصته في أكثر من موضع، فيذكر على سبيل المثال: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾

[مريم: ٣٠-٣٣].

ويقول أيضًا: ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[الأنعام: ٨٥].

وعلى هذا التكريم والتبجيل استمر الوضع في فترة المدينة، على ما كان فيها من صراعات وخلافات مع اليهود والنصارى، وعلى ما حدث من تكذيبٍ مستمر منهم.. إلا أن المديح الإلهي للأنبياء الكرام استمر دونما انقطاع..

فموسى وعيسى -عليهما السلام- يذكرهما ربنا كائنين من أُولي العزم من الرسل، فيقول سبحانه في حقهما: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾[الأحزاب: ٧].

فإذا أخذنا في الاعتبار أن هذه السورة -وهي سورة الأحزاب- قد نزلت بعد خيانة يهود بني قريظة للمسلمين، ومحاولتهم استئصال كافة

المسلمين من المدينة، أدركنا مدى التكريم الإلهي لموسى وعيسى عليهما السلام -وهما من أنبياء بني إسرائيل- وأدركنا أيضًا مدى الأمانة التي اتصف بها الرسول ﷺ؛ إذ ينقل تكريم الله لهؤلاء الأنبياء العظام على رغم خيانة أقوامهم وأتباعهم.

ولم يكن هذا الاحتفاء والاحترام لهذين الرسولَيْن العظيمين أمرًا عرضيًّا عابرًا في القرآن الكريم، بل كان متكررًا بشكل لافت للنظر..

فعلى الرغم من ورود لفظ «محمد» ﷺ أربع مرات فقط، ولفظ «أحمد» مرة واحدة فقط، نجد أن لفظ «عيسى» قد جاء خمسًا وعشرين مرة، ولفظ «المسيح» إحدى عشرة مرة، بمجموع ست وثلاثين مرة!! بينما تصدر موسى عليه السلام قائمة الأنبياء الذين تم ذكرهم في القرآن الكريم، حيث ذُكر مائة وأربعين مرة!!

وبالنظر إلى عدد المرات التي ذُكر فيها كل نبي في القرآن، تدرك مدى الحفاوة التي زُرعت في قلوب المسلمين لهم. والحق إنني قد فوجئت عندما قمتُ بعملية إحصاء لأسماء الأنبياء في القرآن، كما وجدتُ لها بعض الدلالات اللطيفة؛ فأكثر الأنبياء ذكرًا في القرآن هم موسى ثم إبراهيم ثم نوح ثم عيسى عليهم جميعًا أفضل الصلاة والتسليم، وهم جميعًا من أولي العزم من الرسل. ولا شك أن في هذا تعظيمًا وتكريمًا لهؤلاء الرسل خاصةً، ولكن لم يأتِ ذكر رسولنا محمد ﷺ -كما أشرنا قبل ذلك- إلا خمس مرات، بل إننا نرى في هذا الإحصاء أن سبعة عشر نبيًّا قد ورد ذكرهم أكثر من ذكر رسول الله ﷺ؛ مما يدل دلالة قاطعة على أن الإسلام يجلُّ كل الرسل

والأنبياء، كما يجزم هذا الإحصاء بأن القرآن ليس من تأليف رسول الله ﷺ -كما يدَّعِي كثير من الغربيين- وإلا كان همُّه أن يُمجِّدَ نفسه لا غيره.

ونتساءل: أبَعْد كل هذا الذكر والتعظيم يقال: إن المسلمين لا يعترفون بغيرهم؟!!

مَن مِن أهل الأرض يعترف بنا كما نعترف نحن بغيرنا؟!

وعلى الرغم من قناعتنا أن رسول الله ﷺ هو أفضل البشر وسيد الخلق، إلا أن القرآن الكريم يأمرنا بالإيمان بجميع الأنبياء دون تفرقة بينهم، فيقول الله ﷻ يصف الإيمان الأمثل الذي يجب أن تتحلى به أمة الإسلام: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

«هذا هو الإسلام في سعته وشموله لكل الرسالات، وفي ولائه لكافة الرسل، وفي توحيده لدين الله كله، ورَجْعِهِ جميع الرسالات إلى أصلها الواحد، والإيمان بها جملة كما أرادها الله لعباده»(١).

يقول ابن كثير رحمه الله في التعليق على هذه الكلمة الجامعة ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ ﴾: «يعني: بل نؤمن بجميعهم؛ فالمؤمنون من هذه الأمة

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ١/ ٤٢٣.

يؤمنون بكل نبي أُرسل، وبكل كتاب أُنزل، لا يكفرون بشيء من ذلك، بل هم يصدقون بما أُنزل من عند الله، وبكل نبي بعثه الله»(١).

بل إن القرآن يشدد كثيرًا على من يفرق بين الأنبياء، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

هذه هي الخلفية التي كان يضعها رسول الله ﷺ في ذهنه عند الحديث عن الأنبياء والمرسلين.

لقد أَمَرَنا النبي ﷺ ألاَّ نُفاضل بين الأنبياء، فقال: «لاَ تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ»(٢). بل إنه ﷺ خصَّ نفسه بعدم التفضيل، فقال في رواية: «لاَ تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الأَنْبِيَاءِ»(٣)!! وعندما حدث خلاف بين مسلم ويهودي حول المفاضلة بين الأنبياء، غضب الرسول ﷺ لصالح اليهودي وليس لصالح المسلم!!

فقد روى أبو هريرة ﷺ قَالَ: بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَعْرِضُ سِلْعَتَهُ أُعْطِيَ بِهَا شَيْئًا

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٠٣.

(٢) البخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ: كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص والملازمة والخصومة بين المسلم واليهودي (٢٢٨١)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ (٢٣٧٤).

(٣) البخاري عن أبي سعيد الخدري: كتاب الديات، باب إذا لطم يهوديًّا عند الغضب (٦٥١٩).

كَرِهَهُ فقَالَ: لا، وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ. فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فقَامَ فَلَطَمَ وَجْهَهُ، وَقَالَ: تَقُولُ وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا؟!

فذهب إليه فقال: أبا القاسم، إنَّ لي ذمَّةً وعهدًا، فما بال فلانٍ لطم وجهي؟ فقال ﷺ: «لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟!» فذكره، فغضب النبي ﷺ حتى رُئِيَ في وجهه ثم قال: «لاَ تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللهِ؛ فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ، فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِالْعَرْشِ، فَلا أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ أَمْ بُعِثَ قَبْلِي، وَلاَ أَقُولُ إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»(١).

إن رسول الله ﷺ لا يتحرج أن يذكر مثل هذه الحقائق، وبخاصة في هذا الموقف الذي فيه خلاف بين مسلم ويهودي.. لقد تناسى النبيُّ ﷺ تمامًا قصة هذا النزاع، وتذكر أخاه في النبوة موسى بن عمران عليه السلام، فانبرى مدافعًا عنه، رافعًا من شأنه.

لقد كان رسول الله ﷺ يعتبر نفسه والأنبياء الذين سبقوه كحلقات في سلسلة واحدة، أو كلَبِنَاتٍ في بناء واحد، ومن ثَمَّ فلا مجال للتنازع أو الصراع أو التنافس أو المفاضلة.. قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ

---

(١) البخاري: كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(٣٢٣٣)، والترمذي (٣٢٤٥)، وابن ماجه (٤٢٧٤).

الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ، قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ»[١].

هذه هي نظرتنا للأنبياء والمرسلين في مسيرة التاريخ الطويلة.. ما هم إلا لبِنَات في صرح هائل ضخم، ولا معنى لتصارع اللبنات في البناء الواحد، إنما هو التكامل والتعاون لأداء مهمَّة واحدة، وهي توحيد الله رب العالمين.

ومن ثَم فنحن نعترف كل الاعتراف بمن سبقنا على الطريق، وإننا لا نبالغ حين نقول: إننا نحب الأنبياء أكثر من حب أتباعهم لهم، ونُقَدِّر مكانتَهم زيادة على أقوامهم!

وقد ذَكَر ذلك رسول الله ﷺ، فقد قال عندما وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء: «مَا هَذَا؟» قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ، هَذَا يَوْمٌ نَجَّى اللهُ بَنِي إسرائيل مِنْ عَدُوِّهِمْ فَصَامَهُ مُوسَى. قال ﷺ: «فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ». فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ[٢].

فالرسول ﷺ يرى نفسه أحق من بني إسرائيل بموسى عليه السلام، كما أنه سعيدٌ بنجاة بني إسرائيل من عدوهم فرعون إلى الدرجة التي يصوم فيها لله شكرًا على هذه النعمة، بل يأمر الأمة الإسلامية جميعًا بالصيام.

---

(١) البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب المناقب، باب خاتم النبيين (٣٣٤٢)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين (٢٢٨٦).

(٢) البخاري عن ابن عباس: كتاب الصوم، باب صيام عاشوراء (١٩٠٠)، ومسلم: كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (١١٣٠).

ألا يُعَدُّ كل ذلك اعترافًا بموسى عليه السلام وببني إسرائيل؟!

وقد قال ﷺ نفس ذلك الكلام في حق عيسى عليه السلام، قال: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاَّتٍ[1] أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»[2].

ألا يُعَدُّ ذلك اعترافًا بعيسى ابن مريم عليه السلام وبالنصارى؟!

ثم إن رسول الله ﷺ لما أراد أن يُعَظِّم من شأن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وهما أعظم رجلين في الإسلام بعده ﷺ، ضرب لهما مثلاً من الأنبياء والمرسلين، فالتشبُّه بهم مَكرمة، واتّباع هديهم محمدة..

قال ﷺ: «وَإِنَّ مَثَلَكَ -يَا أَبَا بَكْرٍ- كَمَثَلِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، قَالَ: ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[إبراهيم: ٣٦]، وَمَثَلَكَ -يَا أَبَا بَكْرٍ- كَمَثَلِ عِيسَى قَالَ: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[المائدة: ١١٨]. وَإِنَّ مَثَلَكَ -يَا عُمَرُ- كَمَثَلِ نُوحٍ قَالَ: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾[نوح: ٢٦]، وَإِنَّ مَثَلَكَ -يَا عُمَرُ- كَمَثَلِ مُوسَى قَالَ: رَبِّ ﴿ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟

---

(١) أولاد علات: هم الأخوة لأب واحد من أمهات مختلفات. والمعنى أن شرائعهم متفقة من حيث الأصول وإن اختلفت من حيث الفروع حسب الزمن، وحسب العموم والخصوص. انظر: النووي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٥/ ١١٩.

(٢) البخاري عن أبي هريرة: كتاب الأنبياء، باب ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ (٣٢٥٩)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب فضل عيسى عليه السلام (٢٣٦٥).

حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]»[١].

هذه هي مكانة هؤلاء الأنبياء الكرام في عين رسول الله ﷺ.

وحتى عندما كان يتمنى ﷺ من نبيٍّ فعلاً غير الذي فعل، كان يُقدِّم أمنيته بالدعاء له..

فتجده -مثلاً- عندما يتمنى أن لو كان موسى عليه السلام قد صبر في رحلته مع الخضر يقول: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى، لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا»[٢].

وعندما رأى ﷺ أن هناك كلمة أولى من الكلمة التي قالها لوط عليه السلام وحكاها عنه القرآن الكريم عندما قال: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، قال رسول الله ﷺ: «يَرْحَمُ اللهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»[٣].

بل إنه ﷺ يتجاوز الأنبياء السابقين ليمدح أتباعهم والذين ساروا على نهجهم وثبتوا على دينهم، فها هو يمدح الراهب النصراني في قصة أصحاب

---

(١) أحمد عن عبد الله بن مسعود (٣٦٣٢)، والبيهقي في سننه (١٢٦٢٣)، والهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١١٥، وقال: وفيه أبو عبيدة ولم يسمع من أبيه، ولكن رجاله ثقات.

(٢) البخاري: كتاب العلم، باب ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم فيكل العلم إلى الله (١٢٢)، وأيضًا: كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليه السلام (٣٢٢٠)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام (٢٣٨٠).

(٣) البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب الأنبياء، باب قوله عز وجل: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ (٣١٩٢)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ (١٥١).

الأخدود[١]، وها هو يمدح الأعمى من بني إسرائيل الذي شكر نعمة الله تعالى[٢]، وها هو يمدح جريجًا[٣] ويذكر قصته للصحابة ولنا، وهو من عُبَّاد بني إسرائيل، وهكذا.. وإنَّ حصر مثل ذلك صعب جدًّا؛ لوفرته في كتب السنة النبوية.

وأكثر من ذلك أنه ﷺ طلب من الصحابة أن يتخذوا الثابتين من السابقين من أصحاب الديانات الأخرى قدوةً ونبراسًا للهدى..!!

وانظر إلى هذا الموقف الذي يضرب فيه المثل بأتباع دينٍ آخر..

قال خبَّاب بن الأرتِّ: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّدٌ بردةً له في ظلِّ الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال ﷺ: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلاَّ اللهَ أَوِ

---

(١) حديث أصحاب الأخدود رواه مسلم عن صهيب: كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام (٣٠٠٥)، وأحمد (٢٣٩٧٦).

(٢) قصة الأقرع والأعمى والأبرص الذين ابتلاهم الله، رواها البخاري عن أبي هريرة: كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٢٧٧)، ومسلم في أوائل كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦٤).

(٣) قصة العابد (جريج) والطفل الذي تكلم في المهد، رواها البخاري عن أبي هريرة: كتاب أبواب العمل في الصلاة، باب إذا دعت الأم ولدها في الصلاة (١١٤٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة (٢٥٥٠).

الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[1].

هذه هي نظرته ﷺ للأنبياء ولأتباعهم، وهو أمر ثابت في منهج حياته ﷺ من أول بعثته.

بل إنه ﷺ لما نزل عليه الوحي للمرة الأولى ولم يدرِ ما هو، ذهب إلى ورقة بن نوفل[2]، وهو معروف بالنصرانية، وصرحت بذلك الروايات المتعددة[3]، ولقد أعلن ورقة بن نوفل بوضوح أنه إن أدركه يوم النبي ﷺ فسوف ينصره نصرًا مؤزرًا، لكنه مات قبل أن يرى ذلك، ومع هذا لم يَنْسَه رسول الله ﷺ، وإنما مدح إيمانه، وذكر أنه من أهل الجنة فقال: «لا تَسُبُّوا وَرَقَة؛ فَإِنِّي رَأَيت لَهُ جَنَّة أَوْ جَنَّتَيْنِ»[4].

كل هذه المشاعر الفياضة -دون حساسية أو تعنُّت- جعلته ﷺ يقف تلك المواقف الإيجابية.

---

(١) البخاري: كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر (٦٥٤٤)، وأحمد (٢١١٠٦).

(٢) هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، تنصَّر في الجاهلية، ولما نزل الوحي على النبي ﷺ في غار حراء انطلقت به خديجة حتى أتت ورقة، فلما علم حاله ورقة قال: هذا الناموس (أي الوحي) الذي أُنزل على موسى. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٥/ ٤٦٣-٤٦٥، وابن حجر: الإصابة ٦/ ٦٠٧.

(٣) البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦٠).

(٤) رواه الحاكم في المستدرك عن السيدة عائشة ~~رضي الله عنها~~ (٤٢١١)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٧٣٢٠).

ثم إنه ﷺ كان يدرك أن بقاء اليهود والنصارى إلى يوم القيامة أمر مُسَلَّم به، وقد أخبر بذلك في روايات عديدة غزيرة[١].. وإن كان وجودهم من الأمور المقطوع بها، ومن المسلَّمات على هذا النحو، فلا بُدَّ -إذًا- من الاعتراف بهم والتعايش معهم، والبحث عن أفضل الوسائل والطرق للتعامل والتفاعل مع وجودهم. ومن ثَمَّ لم يكن الثناء على بعضهم أو الاعتراف بوجودهم مجرد ترف فكري، أو تجميل سياسي للواقع الذي يعيشه المسلمون، إنما أُسقطت هذه الكلمات والأفكار على أرض الواقع، فأفرزت مواقفَ إيجابية كثيرة، بل وتشريعات في غاية الأهمية، كان لها أكبر الأثر في تسهيل مهمة التعايش بين الأديان والثقافات المختلفة داخل المجتمع الواحد.

ولذلك نرى أن الرسول ﷺ قَبِل -ببساطة- فكرة التعايش مع اليهود من أول يوم دخل فيه المدينة المنورة، بل قام بعقد معاهدات مهمة معهم، كما سنفرد لذلك كتابًا مستقلاً إن شاء الله تعالى.

ولم يشأ لهذه المعاهدات أن تنقضي أو تُلغى أبدًا، وإنما كان النقض والغدر يأتي دائمًا من قبل اليهود، وقد ظل النبيُّ ﷺ محافظًا على مبدأ التعايش السلمي والاعتراف بالآخرين، ما دام لم يحدث منهم اعتداء ظالم أو تهديد خطير، بل إنه كان يتجاوز كثيرًا عن تعديات غير مقبولة من أجل أن تنعم المدينة بالاستقرار.

---

(١) انظر مثلاً: البخاري: حديث رقم (٢٧٦٨)، ورقم (٢١٠٩)، ومسلم: حديث رقم (٢٩٤٤)، ورقم (١٥٥).

ولم يُغيِّر الرسول ﷺ هذا النهج إلى آخر حياته، حتى إنه قام بعمل قد يستغربه الكثيرون، وهو أنه اشْتَرَى طَعَامًا مِنْ يَهُودِيٍّ إِلَى أَجَلٍ، وَرَهَنَهُ دِرْعًا مِنْ حَدِيدٍ[1]!!

ووجه الاستغراب أن الصحابة الأغنياء كانوا كُثُر في المدينة المنورة، ولم يكن عندهم أغلى من رسول الله ﷺ، فكان من الميسور أن يُهدَى إليه الطعام، أو على الأقل أن يَقترض منهم، أو يرهن درعه عند أحدهم، ولكن الواضح من الموقف أنه ﷺ فعل ذلك لإثبات جوازه للمسلمين، ولتوجيه المسلمين إلى جعل العلاقة بينهم وبين اليهود طبيعية، ما داموا يحترمون جوار المسلمين ولا يعتدون على حرماتهم، ولو وصل الحد إلى رهن الدرع، وهو شيء عسكري مهم كما هو معلوم، ولكنه كان لإثبات حسن النوايا إلى أكبر درجة.

وكما تعامل رسول الله ﷺ مع اليهود فعل ذلك أيضًا مع النصارى، وقام بعقد المعاهدات معهم أكثر من مرة واعترف بوجودهم مع اختلافه معهم في العقيدة في أكثر من جزئية، ومنها جزئيات خطيرة لا تحتمل إلا الشرك الصريح بالله، ومع ذلك لم يُكرِههُم على تغيير دينهم، على الرغم من خوفه على مصيرهم. يقول تعالى مخاطبًا النبيَّ ﷺ: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩]؟!

---

(١) البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها: كتاب الرهن، باب من رهن درعه (٢٣٧٤)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب الرهن وجوازه في الحضر والسفر (١٦٠٣).

إن المساحة المتاحة فقط هي مساحة الدعوة بالتي هي أحسن، ومساحة الشرح الجلي والتوضيح المبين، ثم بعد ذلك يُترك الأمر تمامًا للإنسان ليختار ما يشاء، قال تعالى: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]. ومن هذا المنطلق قَبِل رسول الله ﷺ أن يَبقى اليهود على يهوديتهم، وأن يَبقى النصارى على نصرانيتهم، وأن يستمر التعاملُ بصورةٍ سِلميَّةٍ طيبةٍ بين الطوائف كلها.

إن المبدأ العام واضح، وهو أنه ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وأن الذي يُسلم دون رغبة حقيقية لا ينفع نفسه ولا مجتمعه، فلا معنى - إذًا- لقبول مسلم ظاهريًا وهو يبطن الكفر في داخله، ولا معنى أيضًا لاستمرار الصراع والتنافر، فلتكن الحياة الطبيعية الهادئة مع الطوائف غير المسلمة، حتى يأتي يوم يحكم فيه الله ﷻ بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون.. يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[الجاثية: ١٧].

بل إن الرسول ﷺ قَبِلَ في شطرٍ كبير من حياته أن يتعايش مع المشركين، ونزلت الآيات تترى على هذا النحو في مكة المكرمة.. قال تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾[الكافرون: ٦]. وقال أيضًا: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾[الأعراف: ١٩٩]. وقال سبحانه: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[الحجر: ٩٤].

لقد كان هذا نهجه ﷺ في مكة، ولكنهم حاربوه واضطهدوه وأخرجوا أصحابه، وطاردوهم هنا وهناك، وضيَّقوا عليهم كل سبيل، فلم يكن بدٌّ من القتال والمقاومة.

مع هذا الاعتراف بالآخرين على كل طوائفهم، ومع هذا القبول لكل الملل والنحل على شدة اختلاف عقيدة المسلمين عن عقائدهم، ومع هذا التلطف الشديد والتجمُّل المستمر.. مع كل هذا الذي قَدَّمه رسول الله ﷺ، هل اعترف به الآخرون؟!

هذا ما سنحاول التعرُّف عليه في المبحث القادم.

* * *

المبحث الثاني

هل يعترف غير المسلمين بالمسلمين؟!

على الرغم مما رأيناه في المبحث السابق من اعتراف النبي ﷺ بغير المسلمين أيًا كانت طوائفهم، وكيف كان قبوله ﷺ لهم متجاوزًا كل مساحات الاختلاف العقائدي الشاسعة التي تفصل بينهم وبينه ﷺ.. على الرغم من كل ذلك فإن السؤال التالي يطرح نفسه بإلحاح: هل اعترف الآخرون بالرسول ﷺ أو بالمسلمين؟!..

موقف اليهود:

ماذا كان موقف اليهود من رسول الله ﷺ؟!

لقد كان التكذيب والإعراض والإنكار من أول يوم!! فكل الشواهد تقول: إن اليهود كانوا يعرفون أمر رسول الله ﷺ وهو بمكة المكرمة، وهو ما رجحه إسرائيل ولفنسون[1] في دراسته عن اليهود -وإن كنا نختلف معه في كثير من الآراء- إلا أن هذا الاستنباط يبدو صحيحًا..

يقول ولفنسون: «ونرجح أن اليهود لم يغفلوا عن الحركة الإسلامية

---

(١) إسرائيل ولفنسون: باحث يهودي حصل على درجة الدكتوراه من مصر تحت إشراف الدكتور طه حسين، وكانت أطروحته تدور حول اليهود في البلاد العربية.

لأنها متصلة بمصالحهم السياسية والتجارية والاجتماعية، خصوصًا إذا لاحظنا اتجاه الدعوة الإسلامية صوب المدينة أواخر سنوات مكة، وميل زعماء الخزرج إلى الاتصال بالرسول ﷺ، ونحن نعلم ما كان بينهم وبين اليهود من الحقد؛ مما جعل زعماء بني النضير وقريظة يراقبون حركاتهم، ثم نعلم أن الإسلام لم ينتشر خفية في يثرب، وكان مصعب بن عمير(١) يدعو الناس إلى الله ورسوله على مرأى من جميع البطون، ثم إننا نعلم أن عددًا من تجار اليهود كان يشترك في مواسم الحج، فمن البعيد أن يجهل اليهود تلك الشئون...»(٢).

وأضيف إلى ما قاله ولفنسون أن القرآن المكي صرَّح بأن علماء بني إسرائيل قد عرفوا صدق هذا الرسول ﷺ، قال تعالى في سورة الشعراء -وهي سورة مكية-:

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

[الشعراء: ١٩٧].

فكانت هذه آيةً للمشركين في مكة.. فمعنى ذلك أن المشركين سألوا اليهود عن صفة الرسول ﷺ فوجدوه في كتبهم، فلا شكَّ أن اليهود قد عرفوا عند ذلك أن الرسول المنتظر هو محمد ﷺ.

---

(١) مصعب بن عمير: هاجر إلى الحبشة، وشهد بدرًا، وبعثه رسول الله ﷺ سفيرًا إلى المدينة قبل الهجرة بعد العقبة الثانية يقرئهم القرآن، ويعلمهم الدين. استشهد في غزوة أحد. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٤/ ٣٦، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٨٠٠٢).

(٢) ولفنسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ص١٠٦-١٠٨، بتصرف.

وقد ذكر ابن إسحاق[١] ما يؤيد ذلك، حيث حكى إرسال قريش للنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى يثرب لسؤال أحبار اليهود عن الرجل الذي بُعث فيهم، فدلَّهم أحبار اليهود على عدة مسائل جاءت في التوراة ولا يعرفها إلا نبيٌّ، وبالفعل حمل القرشيان هذه الأسئلة إلى رسول الله ﷺ، وأجاب عنها بما هو في كتب التوراة، وكان هذا الموقف سببًا في نزول سورة الكهف[٢]، وهكذا وضح للجميع أن الرسول ﷺ صادق.

وقد ذكر ابن كثير[٣] رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] عدة روايات تشير إلى معرفة اليهود بأمر رسول الله ﷺ في فترة مكة المكرمة.

وكل هذه الشواهد تؤكد أن اليهود ما كانوا يجهلون الرسول ﷺ بصفته التي جاءت في كتبهم، وأنهم كانوا يتوقعون ظهوره في هذا الزمان، ثم مرت الأيام وهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ومن أول أيامه هناك

---

(١) ابن إسحاق: هو أبو بكر محمد بن إسحاق بن يسار، رأى أنس بن مالك، وروى عن عطاء والزهري، كان صدوقًا من بحور العلم، وله غرائب في سعة ما روى، واختُلِفَ في الاحتجاج به، وحديثه حسن، وقد صححه جماعة. مات سنة ١٥١هـ. انظر: الذهبي: الكاشف ٢/ ١٥٦.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ٢١٠، ٢١١، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٩٨.

(٣) ابن كثير: هو الإمام الحافظ الحجة المؤرخ، عماد الدين أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي الشافعي. ولد سنة ٧٠٠هـ بقرية "مجدل" من أعمال دمشق. من أشهر مؤلفاته: "تفسير القرآن العظيم"، و"البداية والنهاية". ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/ ١٢٣، وابن العماد: شذرات الذهب ٦/ ٢٣١.

حاول أن يتقرب إلى اليهود قدر المستطاع لكونهم أهل كتاب، وإسلامهم ينبغي أن يكون متوقعًا.

ولم يكن هذا التقرب منه ﷺ عن طريق المعاهدات فقط، إنما كان في أمور تعبدية مهمَّة، وخاصة بشعيرتين من أهم شعائر الإسلام، وهما الصلاة والصيام..

فالصلاة في أول فترات المدينة كانت إلى بيت المقدس في فلسطين - وهي قبلة اليهود، وقبلة الأنبياء السابقين- وظل ذلك الوضع لمدة ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا متصلة[1]. وأما الصيام فكان كصيام اليهود، وهو صيام يوم عاشوراء.

إذًا، كانت هناك خلفية علمية عند اليهود تشير إلى أن هذا وقت نبي آخر الزمان، وكان عندهم علم أن هذا الرسول ﷺ قد تجمعت فيه الدلائل والمبشرات التي جاءت في كتبهم، ثم إنه ﷺ يتودد إليهم ويتلطف بهم، ويعتبرهم امتدادًا طبيعيًّا للمؤمنين في حركة التاريخ في الأرض.. ومع كل هذا، فماذا كان ردُّ فعلهم لظهور رسول الله ﷺ؟!

لقد اعترف أقل القليل منهم به ﷺ، ووقعت منهم مواقف مخزية في الإنكار والإعراض، ومن أشهر هذه المواقف موقفهم من إسلام حَبرهم

---

(١) البخاري: كتاب أبواب القبلة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان (٣٩٠)، وأيضًا: كتاب التفسير، باب تفسير سورة البقرة (٤٢٢٢)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة (٥٢٥).

عبد الله بن سلام[1] رضي الله عنه..

لقد جاء عبد الله بن سلام -وكان من علماء اليهود- ليستوثق من أمر رسول الله ﷺ فأتاه وقال له: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلاَثٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ نَبِيٌّ، قَالَ: مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ الْوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ إِلَى أَخْوَالِهِ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَبَّرَنِي بِهِنَّ آنِفًا جِبْرِيلُ».

فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ، وَأَمَّا الشَّبَهُ فِي الْوَلَدِ فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَشِيَ الْمَرْأَةَ فَسَبَقَهَا مَاؤُهُ كَانَ الشَّبَهُ لَهُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاؤُهَا كَانَ الشَّبَهُ لَهَا».

قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ!!

ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ، إِنْ عَلِمُوا بِإِسْلاَمِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ بَهَتُونِي عِنْدَكَ. فَجَاءَتِ الْيَهُودُ وَدَخَلَ عَبْدُ اللهِ الْبَيْتَ، فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «أَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلاَمٍ؟».

---

(١) عبد الله بن سلام: هو عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي ثم الأنصاري، من ولد يوسف بن يعقوب ﷺ. كان حليفًا للأنصار، وكان اسمه في الجاهلية الحصين، فلما أسلم سماه رسول الله ﷺ عبد الله. توفي بالمدينة سنة ٤٣هـ. انظر: ابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٤٧٢٥)، وابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ١٧٦، وابن عبد البر: الاستيعاب ٢/ ٣٨٢.

قَالُوا: أَعْلَمُنَا وَابْنُ أَعْلَمِنَا، وَأَخْيَرُنَا وَابْنُ أَخْيَرِنَا.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ؟»

قَالُوا: أَعَاذَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ.

فَخَرَجَ عَبْدُ اللهِ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

فَقَالُوا: شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا، وَوَقَعُوا فِيهِ»[1].

فكان هذا رجوعًا عن الحق وبصورة مباشرة، ودونما إبداء أي أسباب منطقية، وإنما فقط هو الإنكار لمجرد الإنكار!!

وهذا وفدهم يأتي إلى رسول الله ﷺ يسأله عن أمور معينة؛ ليختبر صدقه وعلمه، ثم هم في النهاية يتذرَّعون بالحجج الواهية العجيبة؛ لكي لا يعترفوا به ﷺ..

فقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أَقْبَلَتْ يَهُودُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، إِنَّا نَسْأَلُكَ عَنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ، فَإِنْ أَنْبَأْتَنَا بِهِنَّ عَرَفْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَاتَّبَعْنَاكَ.

فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ مَا أَخَذَ إسرائيل عَلَى بَنِيهِ إِذْ قَالُوا: اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ.

قَالَ ﷺ: «هَاتُوا».

---

(١) البخاري: كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (٣١٥١)، وأيضًا: كتاب الفضائل، باب كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه (٣٧٢٣)، وكتاب التفسير، باب تفسير سورة البقرة (٤٢١٠).

قَالُوا: أَخْبِرْنَا عَنْ عَلاَمَةِ النَّبِيِّ.

قَالَ ﷺ: «تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلاَ يَنَامُ قَلْبُهُ».

قَالُوا: أَخْبِرْنَا كَيْفَ تُؤَنِّثُ الْمَرْأَةُ وَكَيْفَ تُذْكِرُ؟

قَالَ ﷺ: «يَلْتَقِي الْمَاءَانِ، فَإِذَا عَلاَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ أَذْكَرَتْ، وَإِذَا عَلا مَاءُ الْمَرْأَةِ آنَثَتْ».

قَالُوا: أَخْبِرْنَا مَا حَرَّمَ إسرائيل عَلَى نَفْسِهِ؟

قَالَ ﷺ: «كَانَ يَشْتَكِي عِرْقَ النَّسَا فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلاَئِمُهُ إِلاَّ أَلْبَانَ كَذَا وَكَذَا (قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنِ أَحْمَد: قَالَ أَبِي: قَالَ بَعْضُهُمْ: يَعْنِي الإِبِلَ) فَحَرَّمَ لُحُومَهَا».

قَالُوا: صَدَقْتَ.

قَالُوا: أَخْبِرْنَا مَا هَذَا الرَّعْدُ؟

قَالَ ﷺ: «مَلَكٌ مِنْ مَلاَئِكَةِ اللهِ ﷻ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ بِيَدِهِ أَوْ فِي يَدِهِ مِخْرَاقٌ مِنْ نَارٍ، يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابَ يَسُوقُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللهُ».

قَالُوا: فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي يُسْمَعُ؟

قَالَ ﷺ: «صَوْتُهُ».

قَالُوا: صَدَقْتَ، إِنَّمَا بَقِيَتْ وَاحِدَةٌ، وَهِيَ الَّتِي نُبَايِعُكَ إِنْ أَخْبَرْتَنَا بِهَا؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ لَهُ مَلَكٌ يَأْتِيهِ بِالْخَبَرِ، فَأَخْبِرْنَا مَنْ صَاحِبُكَ؟

قَالَ ﷺ: «جِبْرِيلُ ؑ».

قَالُوا: جِبْرِيلُ؟؟!! ذَاكَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْحَرْبِ وَالْقِتَالِ وَالْعَذَابِ عَدُوُّنَا!! لَوْ قُلْتَ: مِيكَائِيلَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالرَّحْمَةِ وَالنَّبَاتِ وَالْقَطْرِ لَكَانَ! فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ... ﴾[1].

وموقف آخر يرويه صفوان بن عسَّال[2] ﷺ قال: قَالَ يَهُودِيٌّ لِصَاحِبِهِ: اذْهَبْ بِنَا إِلَى هَذَا النَّبِيِّ. فَقَالَ صَاحِبُهُ: لاَ تَقُلْ نَبِيٌّ؛ إِنَّهُ لَوْ سَمِعَكَ كَانَ لَهُ أَرْبَعَةُ أَعْيُنٍ!!

فَأَتَيَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَسَأَلاَهُ عَنْ تِسْعِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، فَقَالَ لَهُمَا ﷺ: «لاَ تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَلاَ تَمْشُوا بِبَرِيءٍ إِلَى ذِي سُلْطَانٍ لِيَقْتُلَهُ، وَلاَ تَسْحَرُوا، وَلاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا، وَلاَ تَقْذِفُوا مُحْصَنَةً، وَلاَ تُوَلُّوا الْفِرَارَ يَوْمَ الزَّحْفِ، وَعَلَيْكُمْ خَاصَّةً الْيَهُودَ أَنْ لاَ تَعْتَدُوا فِي السَّبْتِ».

قَالَ: فَقَبَّلا يَدَهُ وَرِجْلَهُ، فَقَالاَ: نَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ!!

قَالَ ﷺ: «فَمَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَتَّبِعُونِي؟».

قَالا: إِنَّ دَاوُدَ دَعَا رَبَّهُ أَنْ لاَ يَزَالَ فِي ذُرِّيَّتِهِ نَبِيٌّ، وَإِنَّا نَخَافُ إِنْ تَبِعْنَاكَ أَنْ تَقْتُلَنَا الْيَهُودُ»[3].

---

(١) أحمد عن ابن عباس (٢٤٨٣)، وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٩٠٢).

(٢) هو صفوان بن عسال، غزا مع النبي ﷺ اثنتي عشرة غزوة، وقد أتى النبي ﷺ وهو متكئ في المسجد على برد له أحمر فقلت: يا رسول الله، إني جئت أطلب العلم. قال: "مرحبًا بطالب العلم؛ إن طالب العلم لتحفه الملائكة بأجنحتها". أخرجه الثلاثة.

(٣) الترمذي (٢٧٣٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وذكره ابن ماجه مختصرًا (٣٧٠٥).

فهذان اليهوديان رفضا الإيمان واتباع الرسول ﷺ خوفًا على نفسيهما.. وهكذا كان عموم اليهود: بعضهم يُكذِّب جحودًا، وآخرون يكذبون رعاية لمصالحهم ووضعهم الاجتماعي والسياسي، وغيرهم يكذب لخوفهم على أنفسهم. وهكذا كان موقف اليهود منذ البداية تجاه رسول الله ﷺ.

ولسنا ننسى في هذا الصدد موقف حُيي بن أخطب زعيم بني النضير مع رسول الله ﷺ..

تروي أم المؤمنين صفية بنت حيي رضي الله عنها فتقول: لم يكن أحد من ولد أبي وعمي أحب إليهما مني؛ لم ألقهما في ولد قط أهش إليهما إلا أخذاني دونه، فلما قدم رسول الله ﷺ قباء (قرية بني عمرو بن عوف) غدا إليه أبي وعمي (أبو ياسر بن أخطب) مغلِّسين، فوالله ما جاءانا إلا مع مغيب الشمس، فجاءانا فاترين كسلانين ساقطين، يمشيان الهوينى، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما نظر إليَّ واحد منهما، فسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي: أَهُوَ هُوَ؟!

قال: نعم والله!!

قال: تعرِفُهُ بنَعْتِهِ وصِفَتِهِ؟!

قال: نعم والله!!

قال: فماذا في نفسك منه؟

قال: عداوته -والله- ما بقيتُ[1]!!

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ٢٣٧.

ماذا فعل رسول الله ﷺ إزاء هذه المواقف المتعنتة؟!

هل أجبرهم على الاعتراف به وأرغمهم على الإيمان بدينه؟

إنه على الرغم من وضوح الأمر تمامًا، وعِلمه وعِلم الجميع أن اليهود يدركون صدقه وأمانته.. مع كل هذا لم يدفعهم أبدًا إلى الإيمان به، ولم يقهرهم على تصديقه، مع أن القوة متوافرة لديه، وسيوف المسلمين رهن إشارته.

إنه المبدأ الذي لا تبديل له: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾[البقرة:٢٥٦].

ثم هل وقف اليهود عند هذا الحد من عدم الاعتراف؟!

على العكس تمامًا.. لقد أخذوا موقف العداء من رسول الله ﷺ، وقادوا حملات التشكيك في القرآن وفي الرسالة، وبدءوا في تدبير المؤامرات والمكائد التي يريدون بها أن يصرفوا وجوه الناس عن الإسلام..

ومن ذلك أنهم انطلقوا يحذِّرون أهل المدينة من أن هذا الرجل ليس هو الرسول الذي جاء في كتبهم، مع أنهم كانوا يبشِّرون به قبل ذلك، حتى قال لهم معاذ بن جبل ﷺ: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا؛ فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته!! فقال سلام بن مشكم: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكره لكم. فأنزل الله في ذلك: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩] (١).

كذلك الخطة الخبيثة التي تولى كبرها عبد الله بن صيف، وعدي بن زيد، والحارث بن عوف -وكلهم من زعماء اليهود- حين قالوا: تعالوا نؤمن بما أُنزل على محمد وأصحابه غدوة، ونكفر به عشية؛ حتى نُلْبِسَ عليهم دينهم؛ لعلهم يصنعون كما نصنع، ويرجعون عن دينه!!

فأنزل ﷻ فيهم: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٧٢، ٧٣] (٢).

كما حاولوا أن يوقعوا البغضاء والحرب بين الأنصار بالمؤامرة التي قام بها شاس بن قيس (٣) لإثارة الحرب بين الأوس والخزرج، وقد نقل الواقعة

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٩١، ونقل ذلك ابن كثير في تفسيره ١/ ١٧٥، وكذلك نقله السيوطي في الدر المنثور ١/ ٢١٧.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٩١. وانظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٩٦، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ١١٠.

(٣) هو شاس بن قيس اليهودي، كان شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم، حاول أن يوقع بين الأنصار من الأوس والخزرج؛ لما رأى من وفاقهم، وفيه أنزل الله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ (آل عمران: ٩٩).

ابن هشام في سيرته برواية ابن إسحاق[1].

ثم تجاوز اليهود هذه المرحلة وأظهروا الجرأة الشنيعة على الله رب العالمين، عندما وصفوه بالفقر، بينما وصفوا أنفسهم بالغنى، وفيها نزل قول الله ﷻ: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾[آل عمران: ١٨١].

والقصة بكاملها رواها ابن إسحاق ونقلها ابن هشام في سيرته[2]، وكذلك جاءت في مصادر أخرى[3].

بل إن اليهود -في سبيلهم إلى تكذيب رسول الله ﷺ وعدم الاعتراف به- اضطروا إلى التكذيب بنبوة سليمان ؑ، مع أنه عندهم من أعظم الأنبياء؛ لأنه جمع بين النبوة والملك، فادَّعوا أنه ساحر، وليس نبيًّا، وقال بعض أحبارهم: ألا تعجبون من محمد! يزعم أن سليمان بن داود كان نبيًّا، والله ما كان إلا ساحرًا. فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾[البقرة: ١٠٢][4].

ولم يكتف اليهود بكل هذه الفظائع، بل تورَّطوا فيما هو أبعد من ذلك،

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٩٥.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٩٨.

(٣) انظر من ذلك: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٧٥.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ٨٠.

عندما فضَّلوا أهل الشرك وعبادة الأصنام على المسلمين أتباع النبي ﷺ.. وقد أنزل الله ﷻ في ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٥١](١).

وبرغم كل هذه الأحداث والمؤامرات، إلا أن رسول الله ﷺ تمسَّك بعهده معهم، ولم ينكر وجودهم، ولم يمتنع عن الاعتراف بهم، وبكونهم من أهل الكتاب.

إن رسول الله ﷺ لا ينطلق من دوافع شخصية، إنما هو محكوم وملزم بالعقيدة والدين، وبشرع الله القويم، الذي يقتضي الاعتراف بالآخرين على الرغم من إنكارهم وجحودهم.

وهذا هو الفارق بين نظرة المسلمين للآخرين، ونظرة الآخرين لنا..

وهو فارق -كما نرى- كما بين السماء والأرض!!

موقف النصارى:

لم يكن اعتراف النصارى برسول الله ﷺ أفضل كثيرًا من اعتراف اليهود..

نعم، لم تكن مكائد النصارى كمكائد اليهود، ولم يكن غلُّهم وحقدهم

---

(١) روى ذلك ابن أبي حاتم، والإمام أحمد عن ابن عباس وابن إسحاق، ونقلها عنه ابن هشام في سيرته ٢/ ١٠٠، ورواها النسائي (١١٧٠٧)، وذكرها القرطبي في تفسيره ٤/ ١٣٣، وابن كثير في تفسيره ١/ ٦٨٠.

وحسدهم كما رأينا من اليهود، لكنهم -في النهاية- لم يعترفوا برسول الله ﷺ كما اعترف هو بهم.

لقد سأل هرقل زعيم الروم عن حال رسول الله ﷺ، واستوثق من أمره، وعلم بما لا يدع مجالاً للشك أنه نبيٌّ، بل قال كلمة عجيبة في حقه؛ إذ قال لأبي سفيان[١] رضي الله عنه بعد حوار طويل: «إن كان ما تقول حقًّا فسيملك (يعني رسولَ الله ﷺ) موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه»[٢].

فماذا كان موقف هرقل بعد هذا اليقين الشديد في نبوة رسول الله ﷺ، وهذا التوقير العظيم له؟!

لقد قاد الحروب الواحدة تلو الأخرى ضد النبي ﷺ وضد أتباعه من بعده!! لقد دفع بالجيش الروماني لحرب المسلمين في مؤتة ثم تبوك، وهيَّج القبائل العربية النصرانية في شمال الجزيرة لحرب المسلمين، وقاد الحروب الشاملة ضد المسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ، ولعدة سنوات متتالية.

ولم يختلف موقف المقوقس زعيم القبط في مصر عن موقف هرقل

---

(١) هو أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية القرشي الأموي. أسلم يوم فتح مكة، وشهد حُنينًا، وأعطاه رسول الله ﷺ من غنائمها مائة بعير وأربعين أوقية. وشهد الطائف ورُمي بسهم ففُقِئَتْ عينه. وشهد اليرموك، وفُقِئت فيها عينه الأخرى. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/ ٢٧٠، وابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ٤٠٧، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٤٠٤٥).

(٢) البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧).

كثيرًا، فالرجل قال كلمات تدل على تصديقه له، بل أرسل له الهدايا مع حاطب بن أبي بلتعة[1] ﷺ، ومع ذلك عندما دخلت الجيوش الإسلامية أرض مصر وقف معارضًا لها محاربًا إياها، مع أنها خلَّصت مصر من الاحتلال الروماني الذي استمر أكثر من ستمائة سنة متصلة!!

وموقف نصارى نجران معروف ومشهور، لكن الشاهد من موقفهم أنهم أدركوا أنه ﷺ نبي مرسل، ورفضوا أن يلاعنوه كما طلب منهم؛ خوفًا من أن ينزل عليهم غضب الله ﷻ[2]، ومع ذلك لم يعترفوا به ولا برسالته ودينه!!

موقف المشركين:

إن موقف المشركين من رسول الله ﷺ غني عن البيان والشرح، فبرغم المسالمة الكاملة من ناحيته ﷺ ولمدة سنوات طويلة، فإنهم رفضوا الاعتراف به كُلِّيَّةً، بل إن تطاولهم عليه ﷺ وعلى أصحابه مسطور في عشرات ومئات الكتب، وحتى عندما هاجر ﷺ إلى المدينة، فإنه تعامل بمنتهى الرفق مع مشركي المدينة المنورة، ولم يُكره أحدًا منهم على الدخول في الإسلام، بل كان يتلطف إليهم ويتقرب منهم، ولكنهم كانوا دائمي الصد له.

وليس أدل على ذلك من موقفه ﷺ عندما مرَّ على مجلس يجتمع فيه

---

(١) هو حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، شهد بدرًا والحديبية، ومات سنة ثلاثين بالمدينة. وقد شهد الله له بالإيمان في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ (الممتحنة:١). انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ٣٧٤، وابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٤٩١.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٦/ ١٧٤.

المسلمون والمشركون عبدة الأوثان واليهود.. فقد روى البخاري عن أسامة بن زيد[1] رضي الله عنهما قال: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَكِبَ حِمَارًا عَلَيْهِ إِكَافٌ[2] تَحْتَهُ قَطِيفَةٌ فَدَكِيَّةٌ[3]، وأردف وراءه أسامة بن زيد وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج، وذلك قبل وقعة بدر، حتى مر في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفيهم عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول، وفي المجلس عبد الله بن رواحة.

فلمّا غشيت المجلس عجاجة الدَّابَّة خمَّر عبد الله بن أُبَيٍّ أَنْفَهُ[4] بِرِدَائِهِ ثُمَّ قَالَ: لا تُغَبِّرُوا عَلَيْنَا!

فَسَلَّمَ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ وَقَفَ فَنَزَلَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ.

فقال عبد الله بن أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ: أَيُّهَا الْمَرْءُ (!!) لا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا، إِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَلاَ تُؤْذِنَا فِي مَجَالِسِنَا، وَارْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ، فَمَنْ جَاءَكَ مِنَّا فَاقْصُصْ عَلَيْهِ.

---

(١) هو أسامة بن زيد بن حارثة، الحِبُّ بن الحِبِّ، قاد جيش المسلمين وهو دون الثامنة عشرة من عمره، وكان عمر بن الخطاب يجله ويكرمه وفضّله في العطاء على ولده عبد الله بن عمر. وقد اعتزل الفتن بعد قتل عثمان، توفي سنة ثمان أو تسع وخمسين. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ١٧٠، وابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٩١، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٨٩).

(٢) إكاف: هو للحمار بمنزلة السرج للفرس.

(٣) قطيفة فدكية: (قطيفة) دثار مخمل، جمعها قطائف، وقطف. (فدكية) منسوبة إلى فدك، بلدة في شمال المدينة.

(٤) خمَّر أنفه: أي غطاه.

قال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله، فاغْشَنَا به فِي مَجَالِسِنَا؛ فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ. فَاسْتَبَّ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ، حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَتَوَاثَبُوا، فَلَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ، ثُمَّ رَكِبَ دَابَّتَهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ: «أَيْ سَعْدُ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ (يُرِيدُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ) قَالَ كَذَا وَكَذَا».

قَالَ: أُعْفُ عَنْهُ يَا رَسُولَ اللهِ وَاصْفَحْ! فَوَاللهِ لَقَدْ أَعْطَاكَ اللهُ الَّذِي أَعْطَاكَ، وَلَقَدِ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبَحْرَةِ[1] عَلَى أَنْ يُتَوِّجُوهُ، فَيُعَصِّبُونَهُ بِالْعِصَابَةِ، فَلَمَّا رَدَّ اللهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَ شَرِقَ بِذَلِكَ، فَذَلِكَ فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ، فَعَفَا عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ»[2].

فهل بعد هذه المواقف الإيجابية من رسول الله ﷺ، والمواقف السلبية من المخالفين معه أن يدَّعي مُدَّعٍ أن المسلمين لا يعترفون بغيرهم؟!

إن الاعتراف بالآخرين من صلب العقيدة الإسلامية؛ إذ إننا لا نقبل بحال من الأحوال أن نُكرِه أحدًا على تغيير دينه، وكل ما نرجوه من العالم أن يقرأ عن الإسلام من مصادره الصحيحة قبل أن يُصدر الأحكام على شرع الله ﷻ.

---

(١) البحرة: هي القرية أو البلد، والمراد به هنا المدينة النبوية. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٨/ ٢٣٢.

(٢) البخاري: كتاب الاستئذان، باب التسليم في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين (٥٨٩٩)، واللفظ له، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين (١٧٩٨).

وفوق كل ما سبق.. فهل وقف تعامل رسول الله ﷺ مع الآخرين المخالفين له عند حد الاعتراف فقط؟!

لقد تجاوز رسول الله ﷺ هذه المرحلة إلى ما بعدها وما بعدها..

وفي الفصل القادم سنعرض طرفًا -ليس فقط من اعترافه ﷺ بغير المسلمين- ولكن أيضًا من احترامه ﷺ لهم وتقديره لمكانتهم.

❊ ❊ ❊



الفصل الثالث

احترام رسول الله ﷺ لغير المسلمين



قد يحدث أن يعترف قومٌ بوجود قومٍ آخرين وكينونتهم، ولكنهم لا يحترمونهم ولا يوقرونهم، وقد رأينا الأوربيين في فترات متلاحقة من تاريخهم يكتبون على أبواب المطاعم والمحلات «ممنوع دخول اليهود والكلاب»! فهم وإن كانوا يعترفون باليهود كطائفة مستقلة وكينونتهم منفصلة عن النصارى، وكديانة ذُكِرَ أمرها في الإنجيل، إلا أنهم لا يحترمونهم من قريب ولا من بعيد، فيساوون بينهم وبين الكلاب في المعاملة والتعليق، بل إنهم قد يدلِّلون الكلاب ويرفقون بهم، بينما لا يفعلون ذلك مع اليهود!!

وكما فعل الأوربيون مع اليهود فعل الأمريكيون البِيض مع الأمريكيين السود أصحاب الأصول الإفريقية، فكانوا يكتبون على محلاتهم أيضًا «ممنوع دخول الزنوج والكلاب!».

إنه المنطق المنحرف نفسه الذي لا يعطي للنفس البشرية أي تقدير أو احترام.. أما الإسلام فشيء آخر...

في هذا الفصل -إن شاء الله- سنتعرض لمسألة احترام الإسلام للمخالفين له، وليس مجرد الاعتراف بهم فقط، وسيتم ذلك من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: جمال الحوار

المبحث الثاني: منهج التبشير في حياته ﷺ

المبحث الثالث: مدح المخالفين !!

المبحث الرابع: احترام الرسل والزعماء (البروتوكول النبوي)

المبحث الأول

جمال الحوار!!

لقد علَّمنا النبي ﷺ الطريقة المثلى في التعامل مع غير المسلمين، فدلَّنا على أنه لا يكفي أن تعترف بوجود الآخرين، ولكن عليك أيضًا أن تحترمهم.. ولم يكن هذا الأمر اجتهادًا منه ﷺ دون وحي رباني أو أمر إلهي، بل كان موافقًا تمامًا لما جاء في كلام الله ﷻ في القرآن الكريم في شأن التعامل مع المخالفين لنا في العقيدة والدين.

يقول الله ﷻ في كتابه يعلمنا طريقة التحاور مع غير المسلمين: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[سبأ: ٢٤-٢٦].

إن رسول الله ﷺ يعلم على وجه اليقين أنه على الحق والهدى، ومع ذلك أمره الله في تحاوره مع المشركين أن يقول لهم: ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾. إنها الأرضية المشتركة التي نقف عليها، أحدنا على حق والآخر على باطل، فلنتناقش ولنتحاور حتى نصل إلى

الحقيقة الغائبة.. إنها طريقة الحوار المثلى، وغاية الأدب، ومنتهى سموِّ الأخلاق. ثم يعلِّمه الله أن يخاطبهم في أدب جمٍّ فيقول لهم: ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾!!

إنه ينسب لفظ «الجُرْم» إلى نفسه، وهو عادة يأتي في الأخطاء والزَّلاَّت، وينسب لفظ «العمل» لهم وهو يحتمل الصلاح أو الفساد. ثم إنه يُسَلِّم الأمر كله لله ﷻ، فيقول: إن الله ﷻ سيجمع بيننا جميعًا يوم القيامة، ويحكم بيننا بالحق الذي يراه، فنعرف ساعتها من الذي أصاب ومن الذي أخطأ.

إنها أرقى وسيلة ممكنة من وسائل التحاور، لا تحمل أي صورة من صور العصبية والتَّزمُّت، إنما فيها كل الأدب، وكل التقدير للطرف الآخر.

ومثل هذا يقال على ما جاء في القرآن محدِّدًا طريقة الحوار مع أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

يا لَروعةَ الأسلوب!! إنه لا يطلب منا أن نتحاور مع أهل الكتاب بأسلوبٍ حَسنٍ فقط، بل يطلب منَّا دائمًا أن نبحث عن الأسلوب الأحسن والأفضل والأجمل.

هل هناك في تشريعات الأرض، وفي أقوال الفلاسفة ما يقترب من هذا

الجمال الأخلاقي؟!

ثم انظر إلى تقريب العقول وترقيق القلوب، حين يقول: ﴿ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾. إنه يبعث في أهل الكتاب هِمَّة التعاون والتآلف لا التنافر والتباغض، إنَّ إلهنا واحد، وقد أنزل إلينا وإليكم كُتبًا كريمة نؤمن بها جميعًا. فلماذا الشقاق والخلاف؟!

وعلى هذا النسق راجِع الآيات القرآنية لتستمتع بالكنوز الأخلاقية.. يقول تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾

[آل عمران: ٦٤].

ويقول تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[البقرة: ١٠٩].

وحَصْر مثل هذه الآيات يصعب لكثرتها، لكن ما يهمنا في هذا الكتاب هو إسقاط مثل هذه الآيات والتوجيهات الربانية على حياة رسول الله ﷺ لنرى أسلوب تعامله مع غير المسلمين، ومدى توقيره واحترامه لهم..

ومن جمال الحوار أن رسول الله ﷺ كان يستمع إلى مخالفيه وينصت، حتى لو كانت عروضهم غير مقبولة عقلاً أو شرعًا، فكان يعطيهم فرصة الكلام والتعبير عن الرأي؛ لتتاح له بعد ذلك فرصة الكلام وشرح ما يدعو إليه.

انظر إلى هذا المثال الرائع في التعامل مع غير المسلمين عندما دار حوار راقٍ بين رسول الله ﷺ وعتبة بن ربيعة[١] من سادة قريش..

يقول عتبة بن ربيعة وهو يساوم رسول الله ﷺ على ترك الإسلام: «يا ابن أخي، إنك منَّا حيث قد علمت من السِّطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم فرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به مَن مضى مِن آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها». فقال له رسول الله ﷺ: «قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ». قال: «يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا؛ حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفًا سوَّدناك علينا؛ حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإنْ كنت تريد به مُلكًا ملَّكناك علينا، وإنْ كان هذا الذي يأتيك رِئيًا تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبْرِئك

(١) عتبة بن ربيعة: من حكماء قريش، وكان سببًا في إنهاء حرب الفجار، إلا أنه اتبع هواه ولم يسلم، وكان ممن آذى النبي ﷺ وأصحابه إيذاءً شديدًا، وضرب أبا بكر يومًا ضربًا شديدًا، حتى إن بني تيم (قبيلة أبي بكر) قالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة. قُتل كافرًا في بدر ومعه ابنه الوليد.

منه؛ فإنَّه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُدَاوى منه».

حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أَقَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟» قال: نعم. قال ﷺ: «فَاسْمَعْ مِنِّي».

قال: أفعل.

فقرأ ﷺ: بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ ﴾ [فصلت ١-٥].

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: «قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ فَأَنْتَ وَذَاكَ». فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: «نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به». فلما جلس إليهم قالوا: «ما وراءك يا أبا الوليد؟» قال: «ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشِّعْر ولا بالسِّحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعوني، واجعلوها بي، وخَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليَكُونَنَّ لقوله الذي سمعتُ منه نبأٌ عظيم، فإن تُصِبْهُ العرب فقد كُفِيتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ، وإن يظهر على العرب فمُلْكُهُ مُلْكُكُمْ، وعِزُّه عِزُّكُمْ، وكنتم أسعدَ الناس به». قالوا: «سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه!!». قال:

«هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم»[(١)].

وهذا الحوار في غاية الأهمية؛ فعلى الرغم أن عتبة بن ربيعة كان قد قدَّم كلامه بمجموعة من التُّهَم الموجَّهة لرسول الله ﷺ إلا أن رسول الله ﷺ ظل على هدوء أعصابه، ولم ينفعل، إنما واصل الاستماع في أدبٍ واحترام، مع أن عتبة عرض على النبي ﷺ التنازل عن دعوته مقابل ما يعرضه عليه من مغريات الدنيا، فقَبِلَ النبيُّ ﷺ أن يستمع إليه، بل قال له: «قُلْ يَا (أَبَا الْوَلِيدِ) أَسْمَعُ».. فهو يُكَنِّيه بِكُنْيَتِهِ، أي يُناديه بأحب الأسماء إليه ويلاطفه ويرقِّق قلبه، ولما عرض عتبة بن ربيعة الأمور التي جاء بها لم يقاطعه النبي ﷺ مع سفاهة العروض وتفاهتها، بل إنه صبر حتى النهاية، وقال في أدبٍ رفيع: «أَقَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟» قال: نعم. قال ﷺ: «فَاسْمَعْ مِنِّي».

لقد أعطى ﷺ الفرصة كاملة لعتبة لكي يتكلم ويعرض وجهة نظره، وبعد انتهائه تمامًا بدأ رسول الله ﷺ في الكلام؛ ليضرب لنا بذلك أروع الأمثلة في التحاور مع الآخرين، وإن كانوا مخالفين تمامًا في العقيدة والدين.

***

---

(١) مسند أبي يعلى (١٨١٨)، وابن هشام في السيرة ١/ ٢٩٣، ٢٩٤، والبيهقي في الدلائل ١/ ٢٣٠، ٢٣١، وأبو نعيم في الدلائل (١٨٢)، وابن أبي شيبة في المصنَّف ١٤/ ٢٩٥، ٢٩٦، وعبد بن حميد في المنتخب (١١٢٣)، والحاكم في المستدرك ٢/ ٢٥٣، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. انظر: ابن حجر: المطالب العالية (٤٢٨٥)، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٩، ٢٠): رواه أبو يعلى، وفيه الأجلح الكندي وثَّقه ابن معين وغيره، وضعَّفه النسائي وغيره، فهو حسن الحديث إن شاء الله، وبقية رجال الحديث ثقات.

المبحث الثاني

منهج التبشير في حياته ﷺ

لقد كان الغالب على حياته ﷺ وعلى أقواله وأفعاله جانب التبشير، ولم يكن يخرج عن هذا الطبع على الرغم من قسوة المشركين عليه..

روى ربيعة بن عباد الديلي -وكان جاهليًّا ثم أسلم- قال: «رأيت رسول الله ﷺ بَصَرَ عيني بسوق ذي المجاز يقول: «أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ تُفْلِحُوا». ويدخل في فجاجها[1] والناس مُتَقَصِّفون[2] عليه، فما رأيت أحدًا يقول شيئًا، وهو لا يسكت، يقول: «أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ تُفْلِحُوا». إلا أن وراءه رجلاً أحول وَضِيَء الوجه ذا غَدِيرَتَين، يقول: إنه صابئ كاذب. فقلتُ: من هذا؟ قالوا: محمد بن عبد الله، وهو يذكر النبوة. قلتُ: من هذا الذي يُكذِّبه؟ قالوا: عمه أبو لهب[3].

(١) الفجاج: جمع الفَجّ، وهو الطريق الواسع والمكان البعيد. ابن منظور: لسان العرب، مادة فجج ٢/ ٣٣٨.

(٢) المتقصِّفون: المزدحمون والمجتمعون. ابن منظور: لسان العرب، مادة قصف ٩/ ٢٨٣.

(٣) أحمد (٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣) و(٣٤١) وسنده حسن. وقال الساعاتي في الفتح الرباني (٢٠/ ٢١٦): سنده جيد. والحاكم في المستدرك ١/ ١٥، ومعجم الطبراني الكبير ٥/ ٥٥، والبيهقي (١٧٥٠٥)، وله شاهد من حديث طارق بن عبد الله المحاربي، أخرجه أبو بكر بن شيبة. انظر: ابن حجر: المطالب العالية (٤٢٧٧).

فالرسول ﷺ لم يخرج عن أدبه في المعاملة حتى مع السفاهة الواضحة لأبي جهل وأبي لهب، وظل على منهج التبشير يدعو الناس إلى الفلاح والنجاة، بل إنه كان يبشِّرهم بمُلْكِ الدنيا قبل نعيم الآخرة، إنْ هم آمنوا بالله ولم يشركوا به شيئًا..

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «مرض أبو طالب فجاءته قريش وجاءه النبي ﷺ، وعند أبي طالب مجلسُ رجلٍ، فقام أبو جهل كي يمنعه، وشكوه إلى أبي طالب، فقال: يا ابن أخي، ما تريد من قومك؟ قال ﷺ: «إِنِّي أُرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمُ الْعَجَمُ الْجِزْيَةَ». قال: كلمة واحدة؟! قال ﷺ: «كَلِمَةً وَاحِدَةً». قال: «يَا عَمِّ، قُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ». فقالوا: إلهًا واحدًا؟! ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق. قال: فنزل فيهم القرآن: ﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ﴾ [ص: ١-٧]»(١).

فهو لا يعبس في وجوهم، ولا يقاطع مجالسهم، ولا ينظر لهم نظرة المتكبِّر المعرض، إنما يتلطف إليهم ويتودد، ويبشرهم بمُلك الدنيا ونعيم الآخرة.

---

(١) الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب سورة ص (٣٢٣٢)، وقال: هذا حديث حسن. وأحمد (٢٠٠٨)، وابن حبان (٦٦٨٦)، والحاكم (٣٦١٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه. ووافقه الذهبي.

المبحث الثالث

مدح المخالفين!!

ولم يكن رسول الله ﷺ يقتصر على التودد والملاطفة والرقة في الخطاب، بل كان يتجاوز ذلك إلى ثناءٍ ومدحٍ للمخالفين له، بل والمحاربين له!!

فها هو ﷺ يمدح سهيل بن عمرو[1] وهو حينذاك من قادة المشركين حين جاءه يفاوضه في صلح الحديبية، ويقول للمسلمين: «لَقَدْ سَهُلَ أَمْرُكُمْ»[2]؛ لما يعلمه من سهولة أمر سهيل بن عمرو وحسن طباعه.

واستمع إليه ﷺ وهو يتكلم عن خالد بن الوليد قبل إسلامه، وكان ذلك في العام السابع من الهجرة، أي بعد عدة مواقع حربية كان خالد بن

---

(١) سهيل بن عمرو بن لؤي بن غالب، أحد أشراف قريش وسادتها في الجاهلية. أُسِرَ يوم بدر كافرًا، وكان خطيب قريش فقال عمر: «يا رسول الله، انزع ثنيته فلا يقوم عليك خطيبًا أبدًا». فقال ﷺ: «دعه؛ فعسى أن يقوم مقامًا تحمده». وكان ذلك المقام المحمود هو أنه لما ماج أهل مكة عند وفاة النبي ﷺ وارتد من ارتد من العرب، قام سهيل بن عمرو خطيبًا -وكان قد أسلم- فقال: «والله إني أعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها إلى غروبها». وأتى في خطبته بمثل ما جاء به أبو بكر الصديق ﷺ بالمدينة، فكان ذلك معنى قول رسول الله ﷺ لعمر. انظر: ابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٣٥٦٩)، وابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ٣٤٦.

(٢) البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب (٢٥٨١).

الوليد فيها على رأس الجيوش المشركة، ومن أهمها غزوة أحد، وغزوة الأحزاب، ووقعة الحديبية..

يقول رسول الله ﷺ للوليد بن الوليد أخي خالد بن الوليد -وكان الوليد مسلمًا حينذاك-: «أَينَ خَالِدٌ؟» (يعني لماذا لم يُسلِمْ خالد؟) فقال الوليد: يأتي به الله. فقال ﷺ: «مَا مِثْلُهُ جَهِلَ الإِسْلامَ، ولَو كَانَ جَعَلَ نَكَايَتَهُ وجِدَّه مَعَ المسْلِمِين عَلَى المشْرِكِينَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَقَدَّمْنَاهُ عَلَى غَيْرِهِ»[١].

فمع الذكريات الأليمة المرتبطة بخالد بن الوليد -وبخاصة مصيبة أُحد- إلا أن الرسول ﷺ لا يمتنع من الثناء على عقله، ويتعجب من كَوْنِه لم يدرك قيمة الإسلام مع شدة ذكائه وحكمته، ثم إنه يُثني على خبرته العسكرية وإمكانياته القتالية الفَذَّة، فيعلن أنه لو انضم للمسلمين فسوف يُقَدِّمُهُ على غيره من السابقين إلى الإسلام؛ وذلك لقناعة الرسول ﷺ بمواهبه المتميزة في الحروب والمعارك.

وليس سهلاً مطلقًا على قائدٍ أن يَمْدَح معاديًا له إلا إذا كان على درجة كبيرة من الأخلاق والحكمة والنزاهة.

وكذلك رأينا رسول الله ﷺ يمدح شعر لبيد بن ربيعة[٢] وكان آنذاك

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ١/ ٢٩٣.

(٢) لبيد بن ربيعة العامري الشاعر، قَدِمَ على النبي ﷺ فَأَسْلَمَ وحَسُنَ إسلامه، كان شريفًا في الجاهلية والإسلام، وكان قد نَذَرَ ألا تَهُبَّ الصَّبا إلا نَحَر وأطعم. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ٣٩٢، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٧٥٤٠).

مشركًا، فقال رسول الله ﷺ: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ»(١).

فالرسول ﷺ -وإن كان لا يقول الشعر ولا يُكثِرُ من سماعه- ما تَرَدَّدَ في مدح شاعرٍ مُشْرِكٍ عندما أجاد، هذا مع كثرة الشعراء المسلمين المجيدين أمثال حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

ثم ها هو ﷺ يمدح أخلاق قومٍ مشركين رفضوا الدخول في دينه، ولم يقبلوا أن ينصروه!! لماذا؟! لأنه رأى بعينٍ حيادية أن لهم أخلاقًا عظيمة في بعض الجوانب فامتدحها، على الرغم من غياب الأخلاق الحسنة في جوانب أخرى.. إنهم بنو شيبان الذين يسكنون في شمال شرق الجزيرة العربية على أطراف العراق، ويتحالفون مع دولة فارس العظمى آنذاك.. لقد عرض عليهم رسول الله ﷺ الإسلام فاستحسنوا أمره جدًّا، وكانت ردودهم عليه في غاية الأدب، ولكنهم رفضوا صراحةً أن يدخلوا في الإسلام؛ خوفًا من كسرى فارس، ومع أن الأخلاق السلبية في الموقف كثيرة، ومن الممكن أن يُطعَن بها في شرف القوم، كغياب الحكمة وبُعْدِ النظر، وعدم القدرة على إدراك قيمة الدين الإسلامي، وكأخلاق الجُبْنِ والخوف من كسرى، وعدم نصرة المظلوم، والتردُّد وغياب الحسم والحزم... هذه كلها أخلاق سلبية كان من الممكن أن يُعَلِّقَ عليها رسول الله

(١) البخاري: كتاب الآداب، باب ما يجوز من الشعر والرجز (٥٧٩٥)، ومسلم: كتاب الشعر (٢٢٥٦).

ﷺ، إلا أنه أغفل عمدًا الحديث عن كل هذه السلبيات، وانطلق يمدح أخلاقًا أخرى إيجابية رآها.

لقد قال ﷺ: «مَا أَسَأْتُم فِي الرَّدِّ إِذْ أَفْصَحْتُمْ بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ دِينَ الله لَنْ يَنْصُرَهُ إلاَّ مَنْ حَاطَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ، أَرَأَيْتُمْ إِنْ لَمْ تَلْبَثُوا إلاَّ قَلِيلاً حَتَّى يُورِثَكُمُ اللهُ أَرْضَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَيُفْرِشَكُمْ نِسَاءَهُمْ، أَتُسَبِّحُونَ اللهَ وَتُقَدِّسُونَهُ»؟ فقال النعمان بن شريك: اللهم لك ذا. فتلا رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]، ثم نهض النبي ﷺ فأخذ بيدي أبي بكر ﷺ، فقال: «يَا أَبَا بَكْرٍ، أَيَّةُ أَخْلاَقٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَا أَشْرَفَهَا؛ بِهَا يَدْفَعُ اللهُ بَأْسَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ، وَبِهَا يَتَحَاجَزُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ»[1].

لقد ترك رسول الله ﷺ التعليق على الأخلاق السلبية، ولم يقل لبني شيبان: أنتم فاقدون للمروءة والنجدة. إنما احترم أخلاقهم الإيجابية، وفي مقدمتها الصدق؛ إذ إنه من الخطر الشديد أن يقبل القوم الإسلام ثم يتركوه بعد ذلك، ومن ثَمَّ فحَسَنٌ جدًّا أن يُفْصِحُوا عن خوفهم وقلقهم من البداية.

ثم إنهم كانوا في غاية الأدب في التعبير عن رفضهم للدعوة، وقدَّر الرسول ﷺ لهم ذلك، وفوق ذلك فهم متواضعون غيرُ متكبِّرين يُعْلِنُونَ أنهم سيتنازلون عن رأيهم، ويدخلون في دين الإسلام إنْ ظهر أمر هذا

---

(١) البيهقي في الدلائل ٢/ ٤٢٢-٤٢٧، وأبو نعيم في الدلائل ١/ ٢٣٧-٢٤٢. وانظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ١٦٤، ١٦٥.

الدين على مُلْكِ فارس وغيرها.

إن هذا الموقف من رسول الله ﷺ ليُعتَبر من المواقف المحورية التي يجب أن يتمثَّلها المسلمون في حوارهم مع غير المسلمين.. إنه ﷺ لا يمتنع عن ذِكْرِ محاسنهم وفضائلهم دون كذبٍ ولا رياء، إنما يذكر الحق الذي رآه، وفي هذا إحقاقٌ للحق، وفي الوقت نفسه ترقيق لقلوب المخالفين والمعارضين؛ مما يجعل خلافهم مع المسلمين أقلَّ حدة وأضعف شوكة.

ومن الأمثلة العظيمة أيضًا التي تدل على احترام رسول الله ﷺ لغير المسلمين ما كان يقوله ﷺ، ويحرص على تكراره من ثناء ومديح للنجاشي ملك الحبشة.. فإنَّه ما تردد ﷺ أن يقول بصراحة: «إِنَّ بِهَا مَلِكًا لا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، وَهِيَ أَرْضُ صِدْقٍ»[1].

إنه يمدح الملك النصراني بشيء هو فيه فعلاً، ولا بُدَّ لكل إنسان من شيء إيجابي فيه يستحق المدح، ولكن ليس كل الناس قادرين على إبراز الحُسْنِ عند غيرهم، بل يعتقد بعض قاصري الفهم من المسلمين أنه يجب ترك الثناء على غير المسلمين؛ خوفًا من أن يكون هذا نوعًا من الموالاة أو التودُّد المرفوض، وغالب الأمر أنهم يقيسون على ردود أفعال رسول الله ﷺ في زمن الحرب والقتال ما ينبغي أن يكون من ردود أفعال في وقت السلم والتعاهد.

إن ما نذكره هنا هو جانب مهم وخطير من السيرة النبوية يحتاج المسلمون أن يعرفوه قبل غيرهم، إن هذا هو ديننا الذي ندين به ونفخر،

---

(١) أحمد (١٨٣٠٤)، وسيرة ابن هشام ٢/ ١٦٤، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

وهذا هو رسولنا الذي نقتدي به ونعتز.

ولا شكَّ أن النصرانية التي كانت في الحبشة آنذاك كانت نصرانية محرَّفة كأي مكان في الدنيا، وظهر ذلك في موقف البطارقة من كلام جعفر بن أبي طالب[1] رضي الله عنه عن المسيح عليه السلام، ومع ذلك فهذا التحريف لم يمنع رسول الله ﷺ من ذكر محاسنهم والثناء على فضائلهم.

بل إن رسول الله ﷺ قد تجاوز ذلك بإعطاء النجاشي -وهو على نصرانيته- شَرَفَ أن يكون وليًّا لأم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها، وذلك لتزويجها له ﷺ[2]، وكانت أم حبيبة رضي الله عنها من المهاجرات إلى الحبشة، وتَنَصَّرَ زوجها (عبيد الله بن جحش[3])[4]، ثم فارقته فتزوجها رسول الله ﷺ، وجعل النجاشي وليًّا لها، مع أنه كان من الممكن أن يجعل جعفر بن أبي طالب وَلِيَّها، وبخاصة أنه زعيم الوفد، وابن عم رسول الله ﷺ، أو أن يجعل الولي من المهاجرين من بني أمية، وما أكثرهم! ولكنه ﷺ شاء أن يُعَظِّم شأن النجاشي وأن يُكرِمه.

---

(١) هو جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب، أشبه الناس خَلقًا وخُلقًا برسول الله ﷺ، وهو أخو علي رضي الله عنهما، هاجر إلى أرض الحبشة، وقدم منها على رسول الله ﷺ حين فتح خيبر، فتلقاه النبي ﷺ واعتنقه وقال: "ما أدري بأيهما أنا أشد فرحًا، أبقدوم جعفر أم بفتح خيبر". كان أحد القواد الثلاثة في غزوة مؤتة، وقد استشهد فيها. انظر: ابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (١١٦٨).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ١٦١.

(٣) عبيد الله بن جحش: أسلم بمكة، وهاجر إلى الحبشة مع زوجته أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، إلا أنه تنصر في الحبشة ومات على النصرانية، وتزوج النبي ﷺ زوجته أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان. انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٨/ ٩٦.

(٤) أحمد (٢٧٤٤٨)، والحاكم (٦٧٧٠).

المبحث الرابع

احترام الرسل والزعماء (البروتوكول النبوي)

إن من أعجب المواقف في هذا السياق ما حدث منه ﷺ مع رسل كسرى عندما جاءوه في المدينة المنورة، وكان رسول الله ﷺ قد أرسل رسالة إلى كسرى فارس يدعوه فيها إلى الإسلام، وغضب كسرى فارس من هذه الرسالة، وشَقَّها، وأرسل إلى عامله على اليمن ليأتي له برسول الله ﷺ!!

ويحسن بنا لنَفْقَهَ طريقة رسول الله ﷺ في تعامله مع غير المسلمين -في هذه الظروف الصعبة- أن نعرض للرواية من أوَّلها...

وقال يزيد بن حبيب[1] رحمه الله قال: «بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة[2] رضي الله عنه إلى كسرى بن هرمز ملك فارس، وكتب معه: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِس، سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، وَآمَنَ بِالله وَرَسُولِهِ، وَشَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ،

---

(١) يزيد بن حبيب: من التابعين، روى عن عقبة بن عامر الجهني وغيره. قال محمد بن سعد: يزيد بن حبيب مولى لبني عامر بن لؤي من قريش، وكان ثقة كثير الحديث. مات سنة ثمان وعشرين ومائة. انظر: الزركلي: الأعلام ٦/ ٣٢.

(٢) عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي القرشي، أسلم قديمًا، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية، وشهد بدرًا. أسره الروم في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأرادوه على الكفر، فعصمه الله حتى أنجاه منهم، وأنجى به أسرى المسلمين يومئذ. انظر: ابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٤٦٢٠)، وابن عبد البر: الاستيعاب ٢/ ٢٦٨، وابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ١٠٦.

وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ اللهِ؛ فَإِنِّي أَنَا رَسُولُ اللهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيُحِقَّ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْمَجُوسِ».

قال: فلما قرأه شقَّه، وقال: يكتب إليَّ هذا وهو عبدي؟!

قال: ثم كتب كسرى إلى باذان، وهو على اليمن، أن ابعثْ إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جَلْدَيْن، فليأتياني به، فبعث باذان قهرمانه وهو (بابويه)، وكان كاتبًا حاسبًا بكتاب فارس، وبعث معه رجلاً من الفرس يقال له: خرخسرة، وكتب معهما إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى، وقال لبابويه: ائْتِ بلد هذا الرجل، وكلِّمه، وَأْتِنِي بخبره. فخرجا حتى قدما الطائف، فوجدا رجالاً من قريش بنجب[1] من أرض الطائف فسألاهم عنه، فقالوا: هو بالمدينة. واستبشروا بهما، وفرحوا، وقال بعضهم لبعض: أبشروا، فقد نصب له كسرى ملك الملوك.. كُفِيتُمُ الرجل!!

فخرجا حتى قدما على رسول الله ﷺ فكلمه بابويه؛ فقال: إنَّ شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد بعثني إليك لتنطلق معي، فإن فعلت كتب فيك إلى ملك الملوك ينفعك، ويَكْفِهِ عنك، وإن أبيتَ فهو من قد علمت؛ فهو مُهْلِكُك، ومُهْلِكُ قومك، ومخرِّب بلادك. ودخلا على رسول الله ﷺ وقد حلقا

---

(١) موضع قرب الطائف.

لحاهما، وأعفيا شواربهما، فكره ﷺ النظر إليهما، ثم أقبل عليهما فقال: «وَيْلَكُمَا، مَنْ أَمَرَكُمَا بِهَذَا»؟ قالا: أمرنا بهذا ربنا (يعنيان كسرى). فقال رسول الله ﷺ: «لَكِنَّ رَبِّي قَدْ أَمَرَنِي بِإِعْفَاءِ لِحْيَتِي وَقَصِّ شَارِبِي». ثم قال لهما: «ارْجِعَا حَتَّى تَأْتِيَانِي غَدًا».

قال: وأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماء أن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله، في شهر كذا وكذا، في ليلة كذا وكذا. قال: فدعاهما فأخبرهما، فقالا: هل تدري ما تقول؟! إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا، أفنكتب عنك بهذا، ونخبر الملك؟ قال: «نَعَمْ، أَخْبِرَاهُ ذَلِكَ عَنِّي، وَقُولاَ لَهُ: إِنَّ دِينِي وَسُلْطَانِي سَيَبْلُغُ مَا بَلَغَ مُلْكُ كِسْرَى، وَيَنْتَهِي إِلَى مُنْتَهَى الْخُفِّ وَالْحَافِرِ، وَقُولاَ لَهُ: إِنَّكَ إِنْ أَسْلَمْتَ أَعْطَيْتُكَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ، وَمَلَّكْتُكَ عَلَى قَوْمِكَ مِنَ الأَبْنَاءِ».

ثم أعطى خرخسرة مِنْطَقَة (حزام) فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك؛ فخرجا من عنده حتى قدما على باذان، فأخبراه الخبر، فقال: والله ما هذا بكلام ملكٍ، وإني لأرى الرجل نبيًّا كما يقول، وليكونَنَّ ما قد قال، فلَئِنْ كان هذا حقًّا فهو نبي مرسل، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا. فلم ينشب باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه: «أما بعد، فإني قد قتلتُ كسرى، ولم أقتله إلا غضبًا لفارس؛ لما كان استحلَّ من قتل أشرافهم وتجميرهم في ثغورهم، فإذا جاءك كتابي هذا فَخُذْ لِيَ الطاعة ممن قبلك، وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب فيه إليك، فلا تُهِجْهُ حتى يأتيك أمري فيه».

فلما انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال: إن هذا الرجل لرسول!! فَأَسْلَمَ، وأسلمت الأبناء معه من فارس من كان منهم باليمن. وقد قال بابويه لباذان: ما كَلَّمْتُ رجلاً قَطُّ أَهْيَبَ عندي منه. فقال له باذان: هل معه شُرُط (شرطة)؟ قال: لا[1].

في هذه النقطة العظيمة نجد من أخلاق النبوة في تعامله مع المخالفين له ما نعجز عن وصفه أو بيانه!!

فهذان رسولا كسرى قد جاءا إلى رسول الله ﷺ في عقر داره في المدينة المنورة ليأخذاه إلى كسرى فارس، وكان كلامهما في منتهى الصلف والغرور، تمامًا كزعيمهما كسرى، ومع ذلك فلم يخرج رسول الله ﷺ عن هدوئه وأدبه ورقَّة طباعه، بل أخبرهما بمنتهى الموضوعية والثقة عن خبر السماء الذي أتاه، ثم أخبرهما أن يُبَلِّغَا باذان عامل اليمن من قِبَلِ كسرى أنه إن أسلم أعطاه رسول الله ﷺ ما تحت يده، ثم زاد فوق ذلك الاحترام احترامًا أعظم وأكرم، فأعطى أحد الرسولين هدية قيِّمة عبارة عن مِنْطَقَة فيها ذهب وفضة!!

إن هذا الأسلوب الدبلوماسي الراقي في التعامل مع المخالفين في العقيدة والدين، والمخالفين في الموقف السياسي، بل والمخالفين في السمات الأخلاقية والطباع الإنسانية - لأَمْرٌ يدعو حقيقة للتوقف والتدبر والانتباه؛ فليس هناك قانون يُرْغِم قائدًا أن يتعامل بهذا اللطف مع رجل يهدده

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٣/ ٩٠، ٩١، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٥٠٨-٥١٠.

ويتوعده، ولكنها الرقابة الداخلية في نفس رسول الله ﷺ والتي تضبط كل انفعالاته بضوابط الشرع وأوامر الله تعالى.. وليس هذا النُّبْل إلا في شريعة الإسلام، وشَتَّان بين من يراقب ربَّه في كل حركةٍ أو سَكْنَةٍ في حياته، ومن يعيش تابعًا لهواه طائعًا لشهواته! إنه الفرق بين المشرق والمغرب.

ولم يكن هذا السلوك من رسول الله ﷺ تجاه الآخرين (غير المسلمين) سلوكًا عابرًا في حياته، وإنما كان أصلاً من الأصول التي يحتكم إليها ﷺ في كل تعاملاته مع غير المسلمين، ويظهر هذا جليًّا في رسائله ﷺ إلى ملوك الأرض وزعمائها، فهو لم يختص واحدًا دون الآخر باحترام أو توقير، وإنما عاملهم جميعًا بمنتهى الدبلوماسية، وبأعلى درجات الأخلاق بصرف النظر عن مللهم ونحلهم؛ فقد كان مِنْهُمُ النصارى، ومنهم المجوس، ومنهم عَبَدة الأوثان.. كما أنه لم ينظر إلى أعراقهم، بل عظَّم الجميع من عرب ومن عجم.

لقد أرسل رسول الله ﷺ عدة رسائل إلى ملوك الأرض حينذاك دعاهم فيها إلى الإسلام، وكان اللافت للنظر أنه في كل رسائله كان يصف الملك أو الزعيم بالعظمة، ولم يتحرَّجْ من وصف رجل غير مسلم منحرف العقيدة بهذا الوصف..

يقول ﷺ في رسالته إلى قيصر الروم: «مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ...»(١).

---

(١) البخاري: كتاب بدء الوحي، باب حديث لأبي سفيان عند هرقل (٧)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (١٧٧٣).

ويقول أيضًا في رسالته إلى كسرى فارس: «مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِس...»[١].

ويقول في رسالته إلى المقوقس زعيم مصر: «مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ إِلَى الْمُقَوْقَسِ عَظِيمِ الْقِبْطِ...»[٢].

وإلى النجاشي زعيم الحبشة: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ إِلَى النَّجَاشِيِّ الأَصْحَمِ، عَظِيمِ الْحَبَشَةِ...»[٣].

وهكذا كانت رسائله ﷺ..

وكما أكرم رسول الله ﷺ رسولي كسرى مع كونهما جاءا برسالة غير مقبولة من فارس، فإنه كذلك كان يكرم كل الوفود التي تأتي إلى المدينة المنورة بصرف النظر عن الموقف السياسي والديني الذي يُتَوَقَّع من هذه الوفود، وكان للنبي ﷺ اهتمام بالوفود، استقبالاً وضيافةً وتجمُّلاً وجوائز.. فكان ﷺ يُجري عليهم الضيافة، ويُحسن استقبالهم، ويسائلهم ويتردد عليهم، ويَلبس أحسن الثياب لاستقبالهم[٤].

وكان ﷺ قد خصص بعض الديار لاستقبالهم كما جاء عند استقباله

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٣/ ٩٠، ٩١، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٥٠٨-٥١٠.
(٢) انظر: أبو جعفر الطحاوي: مشكل الآثار ١١/ ١٣٦، وأخرجه البزار في مسنده (١٩٤٥) من كشف الأستار، وسنده جيد.
(٣) الحاكم في المستدرك ٢/ ٦٣٣، والبيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٣٠٨.
(٤) فاروق حمادة: العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي ص٩٥.

لوفد سلامان[١]؛ حيث قال لثوبان غلامه: «أَنْزِلْ هَؤُلاَءِ الْوَفْدَ حَيْثُ يَنْزِلُ الْوَفْدُ»[٢].

فواضح أن هناك دارًا مخصصة لهذا الأمر، وفي بعض الروايات أن هذه الدار كانت دار رملة بنت الحارث النجارية[٣] رضي الله عنها كما حدث مع وفود كلاب ومحارب وعذرة وعبد قيس وتغلب وغسان وغيرهم[٤].

وكان من عادته ﷺ أن يُحَمِّلَ هذه الوفود بالهدايا والجوائز، وكثيرًا ما تكون هذه الجوائز من الفضة[٥].

ولقد بلغ من اهتمام رسول الله ﷺ بالوفود التي تأتي المدينة المنورة على اختلاف أديانها ومعتقداتها أن أوصى بهم وهو في اللحظات الأخيرة من حياته، فكان مما قاله ﷺ في آخر وصاياه: «أَجِيزُوا الْوَفْدَ بِنَحْوِ مَا كُنْتُ

---

(١) يقول حبيب بن عمرو السلاماني: قدمنا وفدَ سلامان على رسول الله ﷺ ونحن سبعة، فصادفنا رسول الله ﷺ خارجًا من المسجد إلى جنازة دُعِيَ إليها؛ فقلنا: السلام عليك يا رسول الله. فقال: «وعليكم، من أنتم؟» قلنا: نحن من سلامان، قدمنا لنبايعك على الإسلام، ونحن على من وراءنا من قومنا. فالتفت إلى ثوبان غلامه فقال: «أنزل هؤلاء الوفد حيث ينزل الوفد». فلما صلى الظهر جلس بين المنبر وبيته، فتقدمنا إليه فسألناه عن أمر الصلاة وشرائع الإسلام، وعن الرُّقى، وأسلمنا وأعطى كل رجلٍ مِنَّا خمس أواقٍ، ورجعنا إلى بلادنا، وذلك في شوال سنة عشر. انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٣٣٢.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٣٣٢.

(٣) رملة بنت الحارث الأنصارية النَّجَّارية من المبايعات، وقد حُبِسَ بنو قريظة في دارها لما حكم فيهمَ سعد بن معاذ، وبيتها كان ينزل فيه وفود النبي ﷺ. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة: ٦/ ١١٩، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (١١١٧٧).

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٣٠٠- ٣٤٨.

(٥) انظر: المصدر السابق، نفس الصفحات.

أُجِيزُهُمْ»[١]. و«أجيزوهم»: بمعنى أعطُوهُم، والجائزة هي العَطِيَّة[٢].

وجدير بنا أن نختم هذا المبحث بأن نذكر أن احترام رسول الله ﷺ للمخالفين له بلغ إلى حَدِّ الحفاظ لهم على كُتُبِهِم الدينية، مع يقينه ﷺ أن هذه الكتب مُحَرَّفَةٌ ومُغَايِرَةٌ للحقيقة، بل وفيها من التعديات على الأنبياء والمرسلين ما لا يُقبَل عقلاً ولا شرعًا، لكنه ﷺ مع كل ذلك حافظ لهم على هذه الكتب والمخطوطات.. فقد غنم ﷺ من حصون خيبر بعد فتحها عدة صُحُفٍ فيها التوراة، فجاءت اليهود تطلبها، فتَكَلَّم فيها رسول الله ﷺ مع الصحابة، وتم بالفعل ردَّها إلى اليهود[٣].

فهل هناك مثل هذا الرُّقِيِّ في التعامل!! وهل هناك من يتَّبع هذه القيم في علاقاته مع المخالف له!! وإن شئتم المقارنة فعودوا لما فعله الصليبيون عند سقوط الأندلس، وما فعله الرومان عند سقوط أورشليم في أيديهم...

وبضدها تتميز الأشياء!!

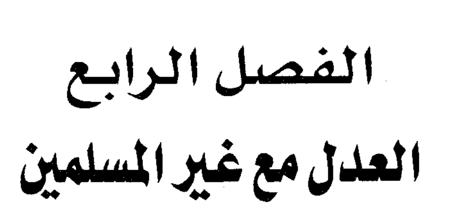
* * *

(١) البخاري عن ابن عباس ﭭ: كتاب الجهاد والسير، باب جوائز الوفد (٢٨٨٨)، ومسلم: كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه (١٦٣٧).

(٢) ابن حجر: فتح الباري ٨/ ١٣٥.

(٣) الواقدي: المغازي ١/ ٦٨١.





الفصل الرابع

العدل مع غير المسلمين



لا أرى أفضل لافتتاح هذا الفصل من كلمة ذكرها مؤلف أو باحث نصراني تعمَّق في دراسة سيرة النبي ﷺ والمبادئ التي قامت على أساسها الشريعة وهو الدكتور نظمي لوقا[1]، فكتب هذه الكلمات:

«ما أرى شريعة أدعى للإنصاف ولا شريعة أنفى للإجحاف والعصبية من شريعة تقول: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾ [المائدة:٨].

فأي إنسان بعد هذا يُكْرِمُ نفسه وهو يدينها بمبدأ دون هذا المبدأ، أو يأخذها بديدن أقل منه تساميًا، واستقامة...؟!»[2].

هذه شهادة باحث نصراني، وما أكثر الشهادات التي على شاكلتها! فهذا أمر لا يُغفل في شريعتنا، ولا في سيرة نبينا ﷺ.

في هذا الفصل سنتناول -إن شاء الله- هذا المعنى المهم من خلال المباحث التالية:

---

(١) نظمي لوقا: مفكِّر مسيحي مصري، يتميز بنظرته الموضوعية. وبالرغم من إلحاح أبويه على تنشئته على المسيحية منذ كان صبيًّا، فقد كان كثيرًا ما يحضر مجالس شيوخ المسلمين، بل إنه حفظ القرآن الكريم ولم يتجاوز العاشرة من عمره. ألَّف عددًا من الكتب أبرزها (محمد الرسالة والرسول)، و(محمد في حياته الخاصة).

(٢) نظمي لوقا: محمد الرسالة والرسول ص٢٦.

المبحث الأول: العدل في الشريعة الإسلامية

المبحث الثاني: العدل في المعاملات المالية

المبحث الثالث: العدل في القضاء

المبحث الرابع: العدل مع المخطئين في حقه ﷺ

المبحث الخامس: الحكم بالبيِّنة

المبحث السادس: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

المبحث السابع: العدل مع شدة الكراهية

* * *

المبحث الأول

العدل في الشريعة الإسلامية

إن العدل مبدأ أساسي من مبادئ الشريعة الإسلامية، ليس فيه استثناء ولا تهاون، وهذا أمر رباني لرسولنا ﷺ ولأمته من بعده.. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾

[النحل: ٩٠].

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾ [النساء: ٥٨]. ويقول سبحانه: ﴿ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُ ﴾ [الشورى: ١٥].

ولاحظ تكرار كلمة «الأمر» مع كلمة «العدل».. إن قضية العدل ليست قضية اختيارية أو من فضائل الأعمال، إنما هي أمر إلزامي لا تقوم الشريعة إلا به، ولا يستقيم لمؤمن أن يحكم بغيره.

وحياة رسول الله ﷺ كانت مثالاً واقعيًّا لقيمة العدل، وظهر ذلك في كل كلماته وأفعاله.. روى أبو هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ

اللهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلا ظِلُّهُ»، ذكر منهم: «إِمَامٌ عَدْلٌ»[(١)].

وتروي السيدة عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال كذلك: «مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»[(٢)].

ويقول ﷺ أيضًا فيما يرويه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «مَنْ أَعَانَ عَلَى خُصُومَةٍ بِظُلْمٍ أَوْ يُعِينُ عَلَى ظُلْمٍ، لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللهِ حَتَّى يَنْزِعَ»[(٣)].

لقد جاءت كل هذه الأحاديث بألفاظ عامة تشمل المسلمين وغير المسلمين؛ فالظلم مرفوض بكل صوره، ومحرَّم مهما كانت الظروف، وليس الاختلاف في العقيدة، أو في العرق والنسب، أو في العلاقة والرابطة القبلية مبرِّرًا أبدًا لأي درجة من درجاته.

ومع هذا الوضوح في التعبير إلا أن رسول الله ﷺ أراد أن يقطع السبيل على كل مسلم في أن يعتقد أن الظلم مسموح به -ولو بدرجة يسيرة- مع غير المسلمين، فقال في كلمات رائعة ما يجب أن نحمله إلى كل إنسان على سطح الأرض؛ ليعلم من هو رسول الله ﷺ: «أَلاَ مَنْ ظَلَمَ

---

(١) البخاري: كتاب الصلاة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد (٦٢٩)، وكتاب الرقاق، باب البكاء من خشية الله (٦١١٤)، وكتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين (١٣٥٧)، وكتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب فضل من ترك الفواحش (٦٤٢١). ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١).

(٢) البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض (٢٣٢١)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها (١٦١٢).

(٣) ابن ماجه (٢٣٢٠)، وأبو داود (٣٥٩٨)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٦٠٤٩).

مُعَاهِدًا أَوِ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَو أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١].

ولم تكن هذه الكلمات الرائعة والمعاني النبيلة مجرد قواعد نظرية لا مكان لها في حياة الناس، بل كان لها الانعكاس الواضح على كل مواقفه وتصرفاته ﷺ؛ فكان يُبْرِزُ هذا المعنى بجلاء في كل معاهداته وارتباطاته، ويحرص على توفير العوامل المساعدة لإتمامه على أكمل وجه..

ففي معاهداته مع اليهود -مثلاً- عند هجرته للمدينة أبرز هذا المعنى بصورة جليَّة في نصوص المعاهدة؛ فكان منها: «وَإِنَّهُ لَمْ يَأْثَم امْرُؤٌ بِحَلِيفِهِ، وَإِنَّ النَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ»[٢]. فكانت هذه القاعدة على سبيل التصريح بأن الظلم غير مقبول مطلقًا، وأن النصر للمظلوم سواء كان هذا المظلوم مسلمًا أو يهوديًّا، وهو ما أيَّده الواقع بعد ذلك.. وكانت بنود المعاهدة كلها مما ينطق بالعدل ويؤكده.

ومثلما ركز ﷺ على هذه المعاني في معاهدته مع اليهود، فَعَل الشيء نفسه عندما تعاهد مع النصارى، فقد قال ﷺ في معاهداته مع نصارى نجران: «وَلاَ يُؤْخَذُ رَجُلٌ مِنْهُمْ بِظُلْمِ آخَرَ»[٣].

---

(١) أبو داود (٣٠٥٢)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٨٥١١) عن عِدَّة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم دِنْيَة (أي لاصقي النسب)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٢٦٥٥).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ٢٥١، وابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٣١٨، وابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ٣١، وأكرم العمري: المجتمع المدني ص١١٩-١٢١.

(٣) محمد فاروق حمادة: العلاقات الإسلامية النصرانية ص١١٠.

ولضمان استمرار العلاقة بين المسلمين والنصارى على أساس العدل، قرَّر رسول الله ﷺ أن يرسل مع نصارى نجران رجلاً يباشر تنفيذ ما اتفقوا عليه، على أن تكون أهم صفات هذا الرجل هي الأمانة.. وعلى الرغم من أن الأمانة صفة لازمة في كل الصحابة ﷺ، إلا أن الرسول ﷺ قد اختار من تبلغ فيه هذه الصفة حدَّ الكمال، حتى يصفه بقوله ﷺ: «لأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلاً أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ»[١].

حتى إن الصحابة ﷺ تمنَّوا جميعًا أن يكونوا ذلك الرجل، فقال ﷺ: «قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ». فلما قام، قال ﷺ: «هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ».

وعندما أراد رسول الله ﷺ أن يرسل رجلاً إلى خيبر لتنفيذ ما اتفق عليه المسلمون واليهود بعد فتح خيبر من قَسْمِ ثمار خيبر بين الطائفتين، أرسل عبد الله بن رواحة ﷺ، وكان العدل هو سمته البارزة، حتى إن بعض اليهود لما اعترضوا على طريقة التقسيم قال كلمته المشهورة: «يا معشر اليهود، أنتم أبغض الخلق إليَّ، قتلتم أنبياء الله ﷺ، وكذبتم على الله، وليس يحملني بغضي إياكم أن أحيفَ عليكم»[٢].

فالظلم غير مسموح به حتى وإن كان الحكم بين رسول الله ﷺ أحب

---

(١) البخاري عن حذيفة بن اليمان: كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران (٤١١٩)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح (٢٤١٩).

(٢) مالك في الموطأ رواية يحيى الليثي (١٣٨٨)، وبرواية محمد بن أبي الحسن (٨٣٠)، وأحمد (١٤٩٩٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد عن جابر ﷺ، ورجاله رجال الصحيح.

الناس إلى قلب ابن رواحة ﷺ، واليهود أبغض الناس إليه.

ويبدو أمر الاهتمام بالعدل مع غير المسلمين بارزًا جدًّا في وصيته ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ وهو يُرسله إلى اليمن، وبها كثير من النصارى واليهود.. قال له:

«إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»[1].

فهذه وصية جامعة لمعاذ بن جبل ﷺ ولكل المسلمين، فلا يجب أن تلهيه القوة أو السلطان عن رؤية الحق وعن نصرة المظلومين؛ إذ إنَّ دعوة المظلوم -بصرف النظر عن ديانته أو عقيدته- ليس بينها وبين الله ﷻ حجاب.

هذه هي نظرة رسول الله ﷺ إلى المظلوم بصفة عامة، وإن كنتَ مستغربًا لها فاسمعْ إلى كلامه ﷺ في حديث آخر حين قال:

---

(١) البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا (١٤٢٥)، وكتاب الجهاد والسير، باب بعث أبي موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن قبل حجه (٤٠٩٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وإلى شرائع الإسلام (١٩).

«اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ»(١).

وفي رواية أخرى لأحمد قال ﷺ: «دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ وَإِنْ كَانَ فَاجِرًا؛ فَفُجُورُهُ عَلَى نَفْسِهِ»(٢).

فهذا تصريح بيِّن أن المظلوم ليس بينه وبين الله حجاب، ومن هنا فإن المسلم الصادق لا يظلم أبدًا لإحساسه الدائم برقابة الله ﷻ عليه، وأن المسألة مسألة عقائديَّة، وأن الله ﷻ ينصر المظلوم يوم القيامة على الظالم، وإن كان المظلوم كافرًا والظالم مسلمًا، وأن رسول الله ﷺ يقف مع المظلوم ضد الظالم يوم القيامة بصرف النظر عن ديانة كل منهما.

هذا هو ديننا لمن لا يعرفه، وهذه هي أخلاقنا التي نعتز بها.

* * *

(١) أحمد عن أنس بن مالك (١٢٥٧١)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده ضعيف. وقال الألباني في السلسلة الصحيحة: حسن. وله شاهد بلفظ: "دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجرًا؛ ففجوره على نفسه". انظر: السلسلة الصحيحة (٧٦٧).

(٢) أحمد عن أبي هريرة (٨٧٨١)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده ضعيف. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد والبزار بنحوه، وإسناده حسن. وقال ابن حجر: إسناده حسن. انظر: فتح الباري ٣/ ٣٦٠. وقال الألباني: إسناده حسن. انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٢٩)، وانظر: صحيح الجامع (٣٣٨٢).

المبحث الثاني

العدل في المعاملات المالية

من الصعب أن تُحصَى المواقف التي ظهر فيها عدله ﷺ مع غير المسلمين في بحث واحد؛ فلم يُعهد عليه ﷺ ظلمٌ قطُّ.. وإنما سنعرض في هذه الصفحات المقبلة لطرف يسيرٍ من عدله ﷺ في تعامله مع غير المسلمين في المعاملات المالية.

من ذلك مثلاً ما رواه عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما قال: «كنَّا مع النبيِّ ﷺ ثلاثين ومائةً، فقال النبيُّ ﷺ: «هَلْ مَعَ أَحَدٍ مِنْكُمْ طَعَامٌ؟» فَإِذَا مَعَ رَجُلٍ صَاعٌ مِنْ طَعَامٍ أَوْ نَحْوُهُ، فَعُجِنَ، ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ مُشْرِكٌ مُشْعَانٌّ (ثائر الرأس) طَوِيلٌ، بِغَنَمٍ يَسُوقُهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَيْعًا أَمْ عَطِيَّةً؟» أَوْ قَالَ: «أَمْ هِبَةً؟». قَالَ: لا، بَلْ بَيْعٌ. فَاشْتَرَى مِنْهُ شَاةً، فَصُنِعَتْ، وَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِسَوَادِ الْبَطْنِ أَنْ يُشْوَى، وَايْمُ اللهِ مَا فِي الثَّلاثِينَ وَالْمِائَةِ إِلاَّ قَدْ حَزَّ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ حُزَّةً مِنْ سَوَادِ بَطْنِهَا: إِنْ كَانَ شَاهِدًا أَعْطَاهَا إِيَّاهُ، وَإِنْ كَانَ غَائِبًا خَبأَ لَهُ، فَجَعَلَ مِنْهَا قَصْعَتَيْنِ، فَأَكَلُوا أَجْمَعُونَ، وَشَبِعْنَا، فَفَضَلَتِ الْقَصْعَتَانِ، فَحَمَلْنَاهُ عَلَى الْبَعِيرِ أَوْ كَمَا قَالَ»[1].

---

(١) البخاري: كتاب الهبة وفضلها، باب قبول الهدية من المشركين (٢٤٧٥)، وكتاب الأطعمة، باب من أكل حتى شبع (٥٠٦٧)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره (٢٠٥٦).

فهذا رسول الله ﷺ في فرقة من جيشه قوامها مائة وثلاثون رجلاً يحتاجون إلى طعام، يمر بهم رجل مشرك بغنم، فيشتري رسول الله ﷺ منه شاة بثمنها، ولم يتجه إلى إكراه الرجل على إعطائهم الشاة بدون ثمن مع توافر القوة لديه ﷺ، ومع شدة احتياجهم، ومع كفر الرجل وفساد عقيدته.. إنه العدل في أرقى صوره، وإن شئتَ فاعقدْ مقارنة بالجيوش الاستعمارية في عصورنا الحديثة، والتي تنزل على البلاد فلا ترعى حرمة، ولا تحفظ حقًّا، بل تعيث في الأرض فسادًا، وتقتل العدل قتلاً.

هذا رسولنا ﷺ في جيشه لا يفكر لا من قريب، ولا من بعيد أن يعتدي على حرمة مشرك، حتى وإن غلب الجوع على الجيش بكامله!

وها هو في رحلة هجرته ﷺ وهو يسير مع ثلاثة رجال هم أبو بكر الصديق وعامر بن فهيرة رضي الله عنهما والدليل المشرك عبد الله بن أريقط، وإذا بهم يقابلون غلامًا صغيرًا معه غنم، وهم يحتاجون للبن، فلا يقولون: هذا ظرف اضطراري، ويجوز أن نسطو على بعض الغنم، أو نأخذ بعض اللبن دون إذن، بل يتقدم أبو بكر ويسأل في تلطف: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل في قريش سمَّاه فعرفه أبو بكر...[1]. فها هو الرسول ﷺ وأصحابه يعرفون أن هذه الغنم مملوكة لمشرك، والمشركون جميعًا الآن في طلب رسول الله ﷺ، وقد صدر قرار قتله، وحاولوا تنفيذه فعلاً، ولكنهم فشلوا.. وما زالوا يحاولون، ومع كل هذه الملابسات إلا أن الرسول ﷺ وأصحابه لا

---

(١) البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم (٣٤٥٢)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب في حديث الهجرة (٢٠٠٩).

يستحلون مالاً بغير حقه، فيسأل الصدِّيقُ ﷺ الغلام: هل أنت حالب لنا؟ قال: نعم. ومن ثَمَّ حَلَبَ لهم وشربوا.

وللفقهاء المسلمين حساسية شديدة من قضايا العدل تلك؛ فتجدهم -تعليقًا على هذه القصة- يناقشون في كتبهم مسألة: هل يجوز من الصدِّيق ﷺ أن يطلب لبنًا من راعي غنم لا يملك هذه الأغنام؟[١] ويجيب ابن حجر على هذا التساؤل بأن سؤال الصديق ﷺ للغلام يعني: هل معك تصريح من مالك الغنم بسقي اللبن للمارِّين في الصحراء على سبيل الضيافة؟ أو أن الصدِّيق لما عرف صاحب الغنم أدرك بمعرفته إياه أنه يسمح بذلك عن طيب نفس، فبدر منه السؤال.

انظر إلى أي درجة يحرص الفقهاء على تقصِّي الموقف لتبرير شربة لبن شربتها مجموعة مطارَدَةٌ من الرجال أُخرِجت من وطنها وديارها بغير حق، وعلى رأس هؤلاء رسول الله ﷺ!!

مثل هذا الموقف الرائع من رسول الله ﷺ وأصحابه قد تكرر في الرحلة نفسها، ولكن مع امرأة ضعيفة ليس معها رجال، وهي أم معبد!!

تذكر الرواية أنهم دخلوا على أم معبد الخزاعية[٢] وكانت مشركة آنذاك، وكانت بمفردها فسألوها لحمًا وتمرًا ليشتروا منها، فلم يصيبوا عندها

---

(١) ابن حجر: فتح الباري ٧/ ١٠.

(٢) أم معبد الخزاعية: هي عاتكة بنت خالد بن منقذ الخُزاعية، ويقال: عاتكة بنت خالد بن خليف، وهي التي نزل عليها رسول الله ﷺ في خيمتها حين خرج من مكة إلى المدينة مهاجرًا، وذلك الموضع يُدعى إلى اليوم بخيمة أم معبد. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٦/ ١٨٦، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (١٢٢٥٣).

شيئًا من ذلك، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة، فدار بينه وبين أم معبد هذا الحوار الراقي:

قال رسول الله ﷺ: «مَا هَذِهِ الشَّاةُ يَا أُمَّ مَعْبَدٍ»؟

قالت: شاة خَلَّفَهَا الجَهد عن الغنم.

قال ﷺ: «هَلْ بِهَا مِنْ لَبَنٍ»؟

قالت: هي أجهد من ذلك.

قال رسول الله ﷺ: «أَتَأْذَنِينَ لِي أَنْ أَحْلِبَهَا؟»[1].

وليس النظر هنا إلى عدله ووَرَعِه فقط، وإنما أيضًا إلى رِقَّتِهِ ولطفه!

أرأيت استئذانه الرقيق ﷺ: «أَتَأْذَنِينَ لِي أَنْ أَحْلِبَهَا»؟! وهذا الاستئذان الرقيق دفع أم معبد أن تردَّ عليه قائلة: بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حلبًا فاحلبها. والملاحظ هنا أن ردَّها هذا كان قبل إسلامها؛ فهي تفتديه بأبيها وأمها؛ لما رأت من حسن أخلاقه، وجمال بيانه، ورِقَّةِ طباعه ﷺ.

وأعظم من ذلك ما فعله ﷺ مع صفوان بن أمية[2] بعد فتح مكة

---

(١) الحاكم (٤٢٤٣)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي في التلخيص، وقال: صحيح. وعزاه ابن حجر في الإصابة ٦/ ١٦٩ للبغوي وابن شاهين وابن السكن وابن منده وغيرهم، والطبراني في الكبير (٣٦٠٥)، وأبو نعيم في الدلائل ص٢٨٢-٢٨٧، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة والجماعة ٤/ ٧٧٧. وللحديث شواهد من حديث جابر رواه البزار كما في كشف الأستار (١٧٤٢).

(٢) صفوان بن أمية بن خلف القرشي الجمحي، أحد أشراف قريش في الجاهلية، وأحد المؤلفة قلوبهم. قُتِلَ أبوه ببدر كافرًا، وقَتل رسول الله ﷺ عمه أبي بن خلف بأُحدٍ كافرًا، أما هو فقد هرب يوم الفتح، ثم رجع إلى النبي ﷺ، فأسلم وحسن إسلامه. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/ ٢٧٤، وابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ٤٢٠، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٤٠٧٢).

وأثناء توجهه إلى حُنَيْن، وكان صفوان آنذاك مشركًا، وقد احتاج رسول الله ﷺ إلى بعض الدروع للقتال في حُنَيْن، وكان صفوان من تجار السلاح في مكة ويملك عددًا كبيرًا منها، ومع أنه كان مهزومًا مقهورًا في ذلك الوقت، ومع أنه كان لا يزال على شركه، ومع أن تاريخه شديد السواد مع المسلمين إلا أن الرسول ﷺ طلب منه هذه الأدراع على سبيل الاستعارة، حتى إن صفوان دُهِش من استعارته للدروع وهو منتصر متمكِّن، فسأله ليستفسر: أغَصْبٌ يا محمد؟ فقال: «لاَ، بَلْ عَارِيَةٌ مَضْمُونَةٌ»[1]. لقد أخذها منه على سبيل الاستعارة، وبالثمن، ثم هو يضمن إن فُقِدَت أو تُلف منها شيء أن يعوِّضه عنها!!

هل في تاريخ الأمم مثل هذه المواقف؟!!

***

(١) أبو داود (٣٥٦٢)، وأحمد (١٥٣٣٧)، والبيهقي (١١٢٥٧)، والحاكم (٢٣٠١)، وهو حسن الشواهد، ويشهد له ما جاء في حديث عبد الرحمن بن جابر عن أبيه، والذي أخرجه الحاكم (٤٣٦٩)، والبيهقي (١١٢٥٧)، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأقره الذهبي، وهو كما قالا فالحديث صحيح، ويشهد له -أيضًا- ما جاء في حديث ابن عباس باللفظ نفسه، والذي أخرجه الحاكم (٢٣٠١)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

المبحث الثالث

العدل في القضاء

إن كنا نعجب من مواقف عدله ﷺ التي مرَّت بنا في الصفحات السابقة، فالعجب كل العجب من مواقفه ﷺ عندما يحكم بين مسلم وغير مسلم؛ فالعدل عنده ﷺ أمر مُطلق لا يتوقف عند أصحاب الأديان والأجناس والعصبيات والمصالح المخالفة، ولا غير ذلك من الوشائج الأرضية والعلاقات الدنيوية.

وأمثال هذه المواقف في السيرة النبوية كثيرة..

منها ما حدث عندما سرق رجل من المسلمين من إحدى قبائل الأنصار من بني أُبيرق بن ظفر بن الحارث، وكان اسمه في رواية: «طعمة بن أُبيرق»، وفي رواية أخرى: «بشير بن أُبيرق»، وكان هذا الرجل قد سرق درعًا من جارٍ له مسلم يقال له: «قتادة بن النعمان»، وكانت الدرع في جراب فيه دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب حتى انتهى إلى الدار، ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له: «زيد بن السمين»، فالتُمِسَتِ الدرع عند «طعمة» فحلف بالله ما أخذها، فقال أصحاب الدرع: لقد رأينا أثر الدقيق في داخل داره. فلما حلف تركوه، واتبعوا أثر الدقيق إلى منزل اليهودي، فوجدوا الدرع عنده، فقال اليهودي: دفعها إليَّ

طعمة بن أُبيرق!! فجاء بنو ظفر -وهم قوم طعمة- إلى رسول الله ﷺ، وسألوه أن يجادل عن صاحبهم، فهَمَّ رسول الله ﷺ أن يعاقب اليهودي، فأنزل الله ﷻ هذه الآيات من سورة النساء: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[النساء: ١٠٥- ١١٢][1].

لقد اعتقد رسول الله ﷺ أن السارق هو اليهودي لوجود القرائن ضده، ولكن الوحي نزل بخلاف ذلك؛ فلم يكتم ﷺ شيئًا -وحاشاه- بل قام وأعلن بوضوح وصراحة أن اليهودي بريء، وأن السارق مسلم!!

وليس الأمر هينًا..!!

إن التبرئة تأتي في حق يهودي اجتمع قومه من اليهود على تكذيب

---

(١) الترمذي عن قتادة بن النعمان (٣٠٣٦)، وقال الترمذي: غريب. والحاكم ٤/ ٣٨٥-٣٨٨ وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرِّجاه. وعزاه في تحفة الأحوذي -أيضًا- لابن المنذر وأبي الشيخ الأصبهاني. وانظر: الطبري في تفسيره ٤/ ٢٦٥، والقرطبي في تفسيره ٣/ ٣٢٧، وابن كثير في تفسيره ١/ ٧٣١، والشوكاني في فتح القدير ١/ ٧٧١، وتفسير البغوي ١/ ٢٨٣، وتفسير البيضاوي ١/ ٢٤٨، وتفسير الجلالين ١/ ١٢٠، والوجيز للواحدي ١/ ٢٨٧، وتفسير أبي السعود ٢/ ٢٢٩، والدر المنثور للسيوطي ٢/ ٦٧١، وتفسير النسفي ١/ ٢٤٦، وروح المعاني للألوسي ٥/ ١٤٠، وزاد المسير لابن الجوزي ٢/ ١٩٠، والتحرير والتنوير لابن عاشور ١/ ١٠٢١، ومعاني القرآن للنحاس ٢/ ١٨٥.

الإسلام، والكيد له، والطعن في رسوله ﷺ، وبثّ الفرقة بين أتباعه.. ومع ذلك، فكل هذه السلبيات والخلفيات لا تبرِّر اتهام يهودي بغير حق.

وهذا الاتهام في حق رجل مسلم من إحدى قبائل الأنصار، وما أدراك من هم الأنصار!! هم الذين آووا ونصروا، وهم كَرِشُ الرسول ﷺ وعيبته[1]، وهم أهل دار الإسلام، وعلى أكتافهم قامت الدولة الإسلامية، ولكن كل هذا ليس مبررًا لتبرئة سارقٍ منهم، ولو كان على حساب يهودي.

إضافةً إلى أن هذا الموقف قد يُعطي مساحة جديدة لليهود يكيلون فيها التُّهم والادعاءات للمسلمين: فها هم المسلمون يسرقون، وها هم يرمون الأبرياء بالتهم، وها هم يجتمعون على نصرة ظالم، وها هم يكذبون. إنها مِساحة واسعة قد أُتيحت لليهود؛ ليواصلوا طعنهم في جسد الأمة الإسلامية.

برغم هذه الخلفيات، كان لا بُدَّ من إحقاق الحق وإقامة العدل.

إن الأمر لم يكن مجرد تبرئة رجل وإدانة آخر، «إنها كان أمر تربية هذه الجماعة الجديدة؛ لتنهض بتكاليفها في خلافة الأرض وفي قيادة البشرية،

---

(١) كرشي وعيبتي: أي بطانتي وخاصتي. قال القزاز: ضرب المثل بالكرش؛ لأنه مستقر غذاء الحيوان الذي يكون فيه نماؤه، ويقال: لفلان كرش منثورة، أي: عيال كثيرة. والعَيْبَة: ما يُحرِزُ فيه الرجلُ نفيس ما عنده، يريد أنهم موضع سره وأمانته. قال ابن دريد: هذا من كلامه ﷺ الموجز الذي لم يُسْبَقْ إليه. وقال غيره: الكرش بمنزلة المعدة للإنسان، والعيبة مستودع الثياب، والأول أمر باطن والثاني أمر ظاهر؛ فكأنه ﷺ ضرب المثل بهما في إرادة اختصاصهم بأموره الباطنة والظاهرة، والأول أولى، وكلا الأمرين مستودع لما يُخْفَى فيه. انظر: ابن حجر: فتح الباري ٧/ ١٢١.

وهي لا تقوم بالخلافة في الأرض، ولا تنهض بقيادة البشرية حتى يتضح لها منهج فريد متفوِّق على كل ما تعرف البشرية، وحتى يثبت هذا المنهج في حياتها الواقعية، وحتى يُمَحَّصَ كيانُها تمحيصًا شديدًا، وتُنْفَضَ عنه كل خبيئة من ضعف البشر، ومن رواسب الجاهلية، وحتى يقام فيها ميزان العدل -لتحكم به بين الناس- مجردًا من جميع الاعتبارات الأرضية، والمصالح القريبة الظاهرة، والملابسات التي يراها الناس شيئًا كبيرًا لا يقدرون على تجاهله!»[1].

ونتساءل من جديد -وسيكثر هذا التساؤل- هل هناك مثل هذه المواقف في تاريخ أمة غير أمة الإسلام؟!! هل بلغ أي قائد من قوَّاد الأرض مثلما بلغ رسولنا ﷺ من التجرُّد للحق، وإظهار العدل وتطبيقه، ومن السماحة والأمانة في التعامل مع غير أتباع دينه؟!!

ومن الجدير بالذكر في القصة السابقة أن نذكر أن هذا المسلم الذي قام بالسرقة -واتَّهم بها اليهودي- كان من المنافقين الذين ظهر نفاقهم وتأكَّد بعد هذه الحادثة، وهذا واضح فيما رواه الترمذي عن قتادة بن النعمان قال: كان أهل بيتٍ منا يقال لهم بنو أبيرق بشر وبشير ومبشر، وكان بشير رجلاً منافقًا يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ ثم ينحله بعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، قال فلان كذا وكذا. فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٢/ ٧٥٣.

الخبيث -أو كما قال الرجل- وقالوا: ابن الأُبيرق قالها. قال: وكان أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة من الشام من الدرمك[١] ابتاع الرجل منها، فخص بها نفسه وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير، فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملاً من الدرمك فجعله في مَشْربة[٢] له، وفي المشربة سلاح: درع وسيف، فعُدي عليه من تحت البيت فنُقبت المشربة وأُخذ الطعام والسلاح، فلما أصبح أتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي، إنه قد عُدي علينا في ليلتنا هذه ونُقبت مشربتنا، فذهب بطعامنا وسلاحنا. فتحسسنا في الدار وسألنا، فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم. قال: وكان بنو أبيرق قالوا -ونحن نسأل في الدار-: والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل -رجلاً منا له صلاح وإسلام- فلما سمع لبيد اخترط سيفه وقال: أنا أسرق؟! فوالله ليخالطنكم هذا السيف أو لتبيِنُنَّ هذه السرقة. قالوا: إليك عنها أيها الرجل، فما أنت بصاحبها.

فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال لي عمي: يا ابن أخي، لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له. قال قتادة: فأتيت رسول الله

---

(١) ضَافِطَة من الدَّرْمَك: الضَّافِطُ والضَّفَّاط: الذي يَجْلبُ الطعام والمَتَاعَ إلى المُدُن. والمُكارِي: الذي يُكْرِي الأحْمَال، وكانوا يومئِذ قومًا من الأنباط يَحْمِلُون إلى المدينة الدَّقيق والزيت. والدرمك: هو الدقيق الأبيض. والمقصود: بضاعة من الشام فيها هذا النوع من الدقيق. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ٢٠١، والحموي: معجم البلدان ٤/ ١٠.

(٢) مشربة: الغرفة والعلية. العظيم آبادي: تحفة الأحوذي ٨/ ٣١٤.

ﷺ فقلت: إن أهل بيت منا أهل جفاء، عمدوا إلى عمي رفاعة بن زيد فنقبوا مشربة له وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردوا علينا سلاحنا، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه. فقال النبي ﷺ: «سَآمُرُ فِي ذَلِكَ». فلما سمع بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له: أسير بن عروة فكلموه في ذلك؛ فاجتمع في ذلك ناس من أهل الدار فقالوا: يا رسول الله، إن قتادة بن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت. قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته، فقال: «عَمَدْتَ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ ذُكِرَ مِنْهُمْ إِسْلامٌ وَصَلاحٌ تَرْمِيهِمْ بِالسَّرِقَةِ عَلَى غَيْرِ ثَبْتٍ وَلاَ بَيِّنَةٍ». قال: فرجعتُ ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك، فأتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي، ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ، فقال: الله المستعان. فلم يلبث أن نزل القرآن ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥].

فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فرده إلى رفاعة، فقال قتادة: لما أتيت عمي بالسلاح وكان شيخًا قد عمي أو عشي في الجاهلية، وكنت أرى إسلامه مدخولاً، فلما أتيته بالسلاح قال: يا ابن أخي، هو في سبيل الله. فعرفتُ أن إسلامه كان صحيحًا، فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين فنزل على سلاقة بنت سعد بن سمية فأنزل الله: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ

مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١١٥، ١١٦]. فلما نزل على سلاقة رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعره، فأخذت رحله فوضعته على رأسها ثم خرجت به فرمت به في الأبطح ثم قالت: أهديت لي شعر حسان؟! ما كنت تأتيني بخير[١]. بل إنه -في بعض الروايات- هرب إلى مكة مرتدًا، ومات بها[٢].

وإذا كان هذا الحكم العادل قد جاء في حق اليهودي على حساب مسلم ضعيف الإيمان مذبذب العقيدة، فإن هذا الحكم لم يصدر لشكٍّ في إيمان المسلم وعقيدته، بل كان سيصدر مهما كان المخطئ؛ لأن الشريعة لا تُحابي أحدًا، والرسول ﷺ لا يجامل أصحابه ومعارفه.

وإن شئت الإيضاح أكثر لهذا المعنى، والتأكيد بصورة أعمق لهذه الحقيقة، فراجع هذه القصة العجيبة التي حدثت بين يهودي وأحد الصحابة المكرمين، والذي كان مقرَّبًا جدًّا إلى قلب رسول الله ﷺ، وهو جابر بن عبد الله بن حرام رضي الله عنهما[٣]، وهو من الصحابة الكرام الذين حضروا بيعة العقبة الثانية في طفولته[٤] مع أبيه «عبد الله بن

---

(١) الترمذي (٣٠٣٦)، وقال أبو عيسى: حديث غريب. وحسنه الألباني.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٠٦، ٤٠٧، والرازي: مفاتيح الغيب ٥/ ٣٦٩.

(٣) جابر بن عبد الله بن حرام، شهد العقبة الثانية مع أبيه وهو صغير، وشهد مع النبي ﷺ ثماني عشرة غزوة، وكان من المكثرين الحفاظ للسنن. ابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ٢٩٢، وابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٣٥١، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (١٠٢٢).

(٤) ابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ٢٤١.

حرام» ﷺ[١]، وشهد المشاهد كلها ابتداءً من أُحد أو التي بعدها[٢].

يروي جابر بن عبد الله ﷺ فيقول: «كان بالمدينة يهوديٌّ، وكان يسلفني في تمري إلى الجِداد[٣] -وكانت لجابرٍ الأرض الَّتي بطريق رومة- فجلستُ، فخلا عامًا، فجاءني اليهوديُّ عند الجِداد، ولم أجِدَّ منها شيئًا، فجعلتُ أستنظره إلى قابلٍ[٤] فيأبى، فأُخبر بذلك النَّبيُّ ﷺ، فقال لأصحابه: «امْشُوا نَسْتَنْظِرْ لِجَابِرٍ مِنَ الْيَهُودِيِّ».

فجاءوني في نخلي، فجعل النَّبيُّ ﷺ يُكلِّم اليهوديَّ، فيقول: أبا القاسم، لا أنظره.

فلمَّا رأى النَّبيُّ ﷺ قام فطاف في النخل، ثمَّ جاءه فكلَّمه فأبى، فقمتُ فجئتُ بقليل رطبٍ فوضعته بين يدي النَّبيِّ ﷺ، فأكل ثمَّ قال: «أَيْنَ عَرِيشُكَ[٥] يَا جَابِرُ؟» فأخبرتُه، فقال: «افْرُشْ لِي فِيهِ». فَفَرَشْتُهُ، فدخل فرقد ثمَّ استيقظ، فجئتُه بقبضةٍ أخرى، فأكل منها ثمَّ قام فكلَّم اليهوديَّ فأبى عليه، فقام في الرِّطاب في النَّخل الثَّانية ثمَّ قال: «يَا جَابِرُ، جُدَّ وَاقْضِ».

---

(١) عبد الله بن حرام السلمي الأنصاري، كان نقيبًا وشهد العقبة ثم بدرًا، وكان أول قتيل من المسلمين يوم أحد، ودفن هو وعمرو بن الجموح في قبر واحد. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ٨٤، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٤٨٣٦).

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ٢٤١.

(٣) الجداد: زمن قطع النخل. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ٩٧، ٩/ ٥٦٧.

(٤) أستنظره إلى قابل: أي أستمهله إلى عام ثانٍ. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٩/ ٥٦٨.

(٥) عريشك: أي المكان الذي اتخذته في البستان، لتستظلَّ به وتقيل فيه. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٩/ ٥٦٨.

فوقف في الجداد فجددت منها ما قضيته، وفضل منه، فخرجت حتى جئت النَّبيَّ ﷺ فبشَّرته، فقال: «أَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ الله»[١].

فهذه قصة عجيبة يستدين فيها جابر بن عبد الله رضي الله عنهما من يهودي، فيأتي ميعاد سداد الدين، وليس مع جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ما يقضي به دَينه، فجعل يطلب من اليهودي أن يؤخره عامًا حتى يستطيع السداد -وكان جابر بن عبد الله رضي الله عنهما من الفقراء المدينين- لكن اليهودي أَبى وأصرَّ على أن يأخذ دَينه في موعده، فأخبر جابر بن عبد الله رضي الله عنهما رسولَ الله ﷺ بالأمر، وطلب منه أن يتوسط بينه وبين اليهودي، وقام رسول الله ﷺ بالفعل، بل أخذ معه بعضًا من أصحابه، وذهب إلى اليهودي يستشفع لجابر، فيقول جابر رضي الله عنه: فجعل رسول الله ﷺ يكلِّم اليهودي. أي أنه أكثر في الكلام والاستشفاع عنده، لكن اليهودي رفض بكلِّ وسيلة، وكان مصرًّا على قوله: أبا القاسم، لا أنظره.

هذا موقف يقع فيه أحد الأصدقاء المقربين إلى قلب من يحكم المدينة المنورة بكاملها في أزمة مع أحد رعايا هذه المدينة وهو اليهودي، إنه يريد تأجيل سداد الدين وليس المماطلة فيه أو التغاضي عنه، والرسول ﷺ بنفسه يستشفع له، ولكن اليهودي يرفض، ومع ذلك لم يجبر زعيم الأمة الإسلامية وقائد المسلمين ورسول ربِّ العالمين ﷺ ذاك اليهوديَّ أو يُكْرِهْهُ على قبول استشفاعه!

(١) البخاري: كتاب الأطعمة، باب الرطب والتمر (٥١٢٨).

لم ينظر رسول الله ﷺ هنا إلى صورته التي قد يستضعفها المراقبون والمحللون للموقف، ولم ينظر إلى حبِّه لجابر بن عبد الله وقُرْبِهِ من قلبه، ولم ينظر إلى تاريخ اليهود العدائي مع المسلمين؛ لم ينظر إلى كل هذه الاعتبارات ولا إلى غيرها، إنما نظر فقط إلى إقامة العدل في أسمى صوره.

إن الحق مع اليهودي، والسداد واجب، والاستشفاع مرفوض من صاحب الحق، فليكن السداد، وليكن الإنصاف لليهودي غير المسلم، ولو كان من صحابي جليل وابن صحابيٍّ جليلٍ.

إن هذا هو الإسلام حقًّا..

لم يكن هذا تكلفًا من الرسول ﷺ، ولا تجملاً منه، إنما كان التطبيق الطبيعي لقواعد الدين.

يقول تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥].

إن الشفقة على جابر لفقره لم تكن مبررًا للحكم له ضد اليهودي.

يقول الشوكاني(١) في فتح القدير في تفسير هذه الآية ﴿ إِن يَكُنْ

---

(١) الشوكاني: هو محمد بن علي الشوكاني (١١٧٢ - ١٢٥٥هـ)، نشأ باليمن، وتعلم النحو والصرف والتفسير والفقه، وصار مشارًا إليه في علوم الاجتهاد بالبنان. من مؤلفاته: نيل الأوطار، وفتح القدير. انظر: القنوجي: أبجد العلوم ٣/ ٢٠١.

غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا ﴾: «إن يكن المشهود عليه غنيًّا فلا يُراعى لأجل غناه استجلابًا لنفعه أو استدفاعًا لضره؛ فيترك الشهادة عليه، أو فقيرًا فلا يُراعَى لأجل فقره؛ رحمةً له وإشفاقًا عليه، فيترك الشهادة عليه»[1].

* * *

(١) الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ١/ ٧٩٠.

المبحث الرابع

العدل مع المخطئين في حقه ﷺ

كان رسول الله ﷺ يُراعي جانب العدل هذا حتى لو كان الأمر متعلقًا به هو شخصيًّا، وأمثلة ذلك في السيرة كثيرة جدًّا، ولكننا معنيُّون في هذا الكتاب بالحديث عن مواقفه مع غير المسلمين، فلن نتطرق إلى شرح مواقفه الرائعة مع أصحابه وأتباعه، وسنكتفي بالتعليق على بعض المواقف التي مرت به ﷺ مع غير المسلمين..

تروي عائشة رضي الله عنها فتقول: دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ[1] عَلَيْكُمْ. قالت عائشة: فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ: وَعَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللعْنَةُ. قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَهْلاً يا عائشة؛ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ» -وفي رواية: «وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ»- فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟! قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ»[2].

فهذا رسول الله ﷺ -وهو القائد المُمَكَّن في المدينة- يدخل عليه مجموعة من اليهود، فيدعون عليه بالموت في وجهه وهم يتحايلون

---

(١) السام: الموت. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة سوم ١٢/ ٣١٤.

(٢) البخاري: كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله (٥٦٧٨)، ومسلم: كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم (٢١٦٥).

باستخدام لفظ «السام» القريب من كلمة «السلام»، بحيث لو واجههم رسول الله ﷺ بذلك لقالوا كذبًا: لقد قلنا «السلام»، ورسول الله ﷺ مع يقينه بما قالوا، ومع وجود عائشة رضي الله عنها في المجلس وسماعها لمثل ما سمع، إلا أنه لا يقيم عليهم حكمًا ما داموا مُنْكِرين، ولا يقول: شهادتي وشهادة عائشة رضي الله عنها أمام شهادتكم، بل يكتفي بأن يردَّ لهم الكلمة بأدب، فيقول: «وَعَلَيْكُمْ». بل إنه ينهى عائشة رضي الله عنها عن العنف والفحش، ويأمرها باتِّباع الرفق في المعاملة حتى مع مَن يدعو عليك بالموت في وجهك!

وأعجب من هذا موقفه ﷺ مع زيد بن سعنة وكان من أحبار اليهود.. قال زيد بن سعنة: إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرتُ إليه، إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمُه جهلَه، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا، فكنت أتلطف له لأن أخالطه، فأعرف حلمه وجهله.

قال: فخرج رسول الله ﷺ من الحجرات، ومعه علي بن أبي طالب، فأتاه رجل على راحلته كالبدوي، فقال: يا رسول الله، قرية بني فلان قد أسلموا ودخلوا في الإسلام، وكنت أخبرتهم أنهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغدًا، وقد أصابهم شدة وقحط من الغيث، وأنا أخشى -يا رسول الله- أن يخرجوا من الإسلام طمعًا كما دخلوا فيه طمعًا، فإن رأيت أن تُرسل إليهم من يُغيثهم به فعلت. قال: فنظر رسول الله ﷺ إلى رجلٍ جانبه -أراه عمر- فقال: ما بقي منه شيء يا رسول الله.

قال زيد بن سعنة: فدنوت إليه، فقلت له: يا محمد، هل لك أن تبيعني تمرًا معلومًا من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا؟ فقال: «لاَ يَا يَهُودِيُّ، وَلَكِنِّي أَبِيعُكَ تَمْرًا مَعْلُومًا إِلَى أَجْلِ كَذَا وَكَذَا، وَلا أُسَمِّي حَائِطَ بني فُلانٍ». قلت: نعم. فبايَعَنِي ﷺ، فأطلقت هِمْيَاني[1]، فأعطيته ثمانين مثقالاً من ذهب في تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا. قال: فأعطاها الرجل وقال: «اعْجِلْ عَلَيهِمْ وَأَغِثْهُمْ بِهَا».

قال زيد بن سعنة: فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة، خرج رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، ونفر من أصحابه، فلما صلَّى على الجنازة دنا من جدار فجلس إليه، فأخذت بمجامع قميصه، ونظرت إليه بوجه غليظ، ثم قلت: ألا تقضيني -يا محمد- حقي؟ فوالله إنكم -يا بني عبد المطلب- قوم مطل، ولقد كان لي بمخالطتكم علم!!

قال: ونظرتُ إلى عمر بن الخطاب وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير، ثم رماني ببصره وقال: أي عدو الله، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع، وتفعل به ما أرى؟! فوالذي بعثه بالحق، لولا ما أحاذر فَوْتَهُ[2] لضربت بسيفي هذا عنقك. ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون

---

(١) الهميان: كيس للنفقة يُشَدُّ في الوسط. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٣/ ٣٩٧، وابن منظور: لسان العرب، مادة همي ١٥/ ٣٦٤.

(٢) أحاذر فوته: أي أخشى أن أترك أمره وهديه ﷺ، وهو فوت رضا الله ورسوله؛ لأن ما فعله لا يُحِلُّ دمه.

وتؤدة، ثم قال: «يَا عُمَرُ، أَنَا وَهُوَ كُنَّا أَحْوَجَ إِلَى غَيْرِ هَذَا؛ أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الأَدَاءِ، وتَأْمُرُهُ بِحُسْنِ التِّبَاعَةِ[1]، اذْهَبْ بِهِ يَا عُمَرُ فَاقْضِهِ حَقَّهُ، وَزِدْهُ عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ مَكَانَ مَا رُعْتَهُ».

قال زيد: فذهب بي عمر فقضاني حقي، وزادني عشرين صاعًا من تمر، فقلت: ما هذه الزيادة؟

قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما رُعْتُكَ. فقلت: أتعرفني يا عمر؟

قال: لا، فمن أنت؟ قلت: أنا زيد بن سعنة. قال: الحبر؟ قلت: نعم، الحبر. قال: فما دعاك أن تقول لرسول الله ﷺ ما قلت، وتفعل به ما فعلت؟

فقلت: يا عمر، كل علامات النبوة قد عرفتُها في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أختبرهما منه: يسبق حلمُه جهلَه، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا، فقد اختبرتهما، فأُشهدك -يا عمر- أني قد رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا، وأشهدك أن شطر مالي -فإني أكثرها مالاً- صدقة على أمة محمد ﷺ.

فقال عمر: أو على بعضهم؛ فإنك لا تسعهم كلهم. قلت: أو على بعضهم. فرجع عمر وزيد إلى رسول الله ﷺ، فقال زيد: أشهد أن لا إله إلا

---

(١) التَّبَاعَة: اسم الشَّيء الذي لك فيه بغية، وقال ابن منظور: والتَّبِعةُ والتِّباعةُ: ما اتَّبَعْتَ به صاحبَك من ظُلامة ونحوها. انظر: ابن منظور: لسان العرب ٨/ ٢٧، والخليل بن أحمد: كتاب العين ٢/ ٧٩. والمراد في قول الرسول ﷺ: «وتأمره بحسن التباعة»: تأمره بحسن طلب بغيته.

الله، وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ»[١].

فانظر -رحمك الله- إلى هذا اليهودي الذي يُخطِّط ويدبر لكي يستثير غضب رسول الله ﷺ عامدًا متعمدًا؛ لكي يختبر صدق نبوته، والرسول ﷺ لا يعلم الغيب إلا عن طريق الوحي، ولا يوجد في القصة ما يشير إلى أنه كان يعرف أمره، واجتهد اليهودي قدر ما يستطيع لكي يصل برسول الله ﷺ إلى قمة الغضب، فقام بعِدَّة أمور، الواحد منها يكفي لإثارة غضب أي إنسان..

فقد ذهب -أولاً- لطلب الدَّيْن المستحق له قبل الموعد المحدد له؛ وليس له حق في هذا التوقيت.

ثم أخذ -ثانيًا- بمجامع قميصه وردائه ﷺ يجذبه!! وتخيل هذا الموقف وقد أمسك اليهودي برداء النبي ﷺ يجذبه منه، والرسول ﷺ في وسط أصحابه، وأمام الناس!

ثم نظر إليه -ثالثًا- بوجه غليظ..

ثم ناداه -رابعًا- باسمه مجردًا من أي لقب ولا كنية، فقال: ألا تقضيني يا «محمد» حقي؟

ثم هو - خامسًا- يسبُّه ﷺ ويَسُبُّ عائلته حين قال: فوالله إنكم -يا

---

(١) ابن حبان (٢٨٨)، والحاكم (٦٥٤٧)، والبيهقي (١١٠٦٦)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: روى ابن ماجه منه طرفًا، ورواه الطبراني، ورجاله ثقات.

بني عبد المطلب- قوم مطل!!

فهذه أسباب خمسة، فيها من التطاول والتعدي ما فيها.. فإذا أضفت إلى كل هذا أن اليهودي يخاطب رأس المدينة المنورة وأعلى سلطة فيها، والرسول ﷺ يقف آنذاك في وسط قوته وعزوته من المهاجرين والأنصار.. إذا أضفت كل ذلك، عرفت أن الجزاء المتوقع لمثل هذا المتطاول قد يكون في أعراف كثير من الناس هو القتل! وهو ما لم يكن غريبًا؛ فقد اقترحه عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان يحضر الواقعة، فماذا فعل رسول الله ﷺ؟!

لقد تلقى ﷺ هذه الاعتداءات -ولا أقول بِتَفَهُّمٍ والتماس عذرٍ فقط- ولكن تلقاها بابتسامة وترحاب!!

لقد نظر الرسول ﷺ -كما يروي زيد بن سعنة- إلى عمر في سكون وتؤدة، ثم قال: أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التقاضي، اذهب به -يا عمر- فاقضه حقه وزده عشرين صاعًا مكان ما رُعْتَه!!

إن هذا السلوك السامي لا يفهمه عامة الملوك أو السياسيين، بل لا يفهمه عموم الناس.. إن تواضع رسول الله ﷺ جعله يقول لعمر: إنه كان أحوج إلى نصيحةٍ منه بحسن الأداء!! مع أنه ﷺ لا يحتاج لهذه النصيحة؛ لأن موعد السداد لم يأتِ بعدُ، ولكنها محاولة لتسكين فؤاد اليهودي والتبسُّط معه.

وهو ﷺ بعد ذلك يرى أن من العدل أن يعوضه عن الخوف الذي

لحقه من جراء تهديد عمر ﷺ، فزاده عشرين صاعًا، وكل هذا دون انفعال أو تصلب، ودون أن يأخذ قسطًا من الوقت يفكر فيه، ويحسب العواقب والنتائج..

إنه رد فعل طبيعي جدًّا له، وهو غير متكلف فيه.. فهذه هي طبيعته الفطرية ﷺ مع عموم الناس، سواءٌ كانوا مسلمين أو غير مسلمين، وسواءٌ أحسنوا العرض أم أساءوا في الطلب.

ألا يحتاج سياسيو العالم وملوكه وقادته أن يقرءوا مثل هذه المواقف؛ ليعرفوا ميزان العدل الذي يجب أن يزنوا به أعمالهم ومواقفهم؟!

ألا يحتاج علماء الأخلاق والاجتماع في العالم أن يتعمقوا في دراسة سيرة الرسول ﷺ؛ لتغيير معايير الأخلاق والقيم التي يعرفونها وفق ما يرونه من أخلاقه ﷺ؟!

إن العالم -بشتى مرجعياته وعقائده- ليحتاج حقيقةً إلى هذا المعين الصافي من أخلاق النبوة، ويوم يعرف الناس هذه الأخلاق ستتغير -لا محالة- الكثير والكثير من أوضاع الأرض، وستفتح طرق واسعة للخروج من كثير من المشكلات والأزمات.

* * *

المبحث الخامس

الحُكْمُ بالبيِّنَة

من صور عدله ﷺ أيضًا في تعامله مع غير المسلمين أنه لم يكن يقيم حكمًا على أحدهم إلا ببينة، مهما كان المُدعِي قريبًا منه ﷺ..

فقد روى عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ». قَالَ الأَشْعَثُ بن قيس[1]: فِيَّ وَاللهِ كَانَ ذَلِكَ، كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ أَرْضٌ فَجَحَدَنِي، فَقَدَّمْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَكَ بَيِّنَةٌ؟» قُلْتُ: لا. فَقَالَ لِلْيَهُودِيِّ: «احْلِفْ». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِذًا يَحْلِفَ وَيَذْهَبَ بِمَالِي. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ [آل عمران: ٧٧] إِلَى آخِرِ الآيَةِ[2].

إنه لموقف نادر حقًّا!!

---

(١) الأشعث بن قيس الكندي، وفد على النبي ﷺ سنة عشر، وكان من ملوك كندة، فلما مات النبي ﷺ ارتد، ثم عاد إلى الإسلام فزوَّجَهُ أبو بكر ﷺ أخته، وشهد القادسية، وشهد مع علي ﷺ صفين. توفي بعد قتل علي ﷺ بأربعين ليلة. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٩٧، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٢٠٥).

(٢) البخاري: كتاب الخصومات، باب كلام الخصوم بعضهم في بعض (٢٢٨٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار (١٣٨).

إنه اختصام بين رجلين؛ أحدهما من صحابة الرسول ﷺ والآخر يهودي.. فيأتيان إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهما، فلا يجد ﷺ أمامه إلا أن يطبِّق الشرع فيهما دون محاباة ولا تحيُّز، والشرع يُلزم المدَّعِي -وهو الأشعث بن قيس ﷺ- بالبينة أو الدليل، فإن فشل في الإتيان بالدليل فيكفي أن يحلف المدَّعَى عليه -وهو اليهودي- على أنه لم يفعل ما يتَّهمه به المدعِي، فيُصَدَّقُ في ذلك؛ وذلك مصداقًا لقول رسول الله ﷺ: «الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَر»[1].

ويفعل رسول الله ﷺ ذلك مع علمه أن اليهود لا يتورعون عن الكذب؛ فهم لا يكذبون على الخلق فقط، ولكن يفترون الكذب على الله ﷻ.. يقول تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٥].

ويتأزم الموقف عندما يتبيَّن أن الصحابي ليس معه بينة، ويصبح الأمر كله رهن حلف اليهودي، ويشعر الصحابي بخيبة الأمل؛ لأنه يعلم أن اليهودي سيحلف كذبًا دون تردد، فلا يملك له رسول الله ﷺ شيئًا، ولا يجد أمامه إلا أن يترك المجال لليهودي!!

أليس هذا هو العدل المطلق الذي لا يتوقع أحد من البشر أن يكون له

(١) رواه مالك في الموطأ برواية محمد بن الحسن الشيباني (٨٤٤)، والبيهقي (٢٠٩٩٠)، وقال الألباني: رواه مسلم، وفي "شرحه للنووي" أنه قال: وجاء في رواية "البيهقي" بإسناد حسن أو صحيح زيادة عن ابن عباس مرفوعًا: "لكن البينة على المدعي واليمين على من أنكر". انظر: مشكاة المصابيح (٣٧٥٨).

تطبيق في واقع الناس؟!

إنه الإسلام.. دين من السماء، يحكم حياة الناس في الأرض.

وإنه رسولنا ﷺ.. أعظم الخلق خُلُقًا وأدبًا!!

ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة في حياته ﷺ التي يرفض فيها دعوى مسلم ضد يهودي لغياب البينة، فقد حدث ما هو أشد من الاختصام على قطعة من الأرض، وحدث ما لابسته ظروف أصعب من ظروف هذه القصة، وكان ردُّ فعله ﷺ واحدًا في القصتين؛ لأن مرجعيته ﷺ ثابتة، والدين والخُلُق والعدل عنده قضايا لا تتجزَّأ..

روى سهل بن أبي حَثْمَةَ رضي الله عنه أَنَّ نَفَرًا مِنْ قَوْمِهِ انْطَلَقُوا إِلَى خَيْبَرَ، فَتَفَرَّقُوا فِيهَا، وَوَجَدُوا أَحَدَهُمْ قَتِيلاً، وَقَالُوا لِلَّذِي وُجِدَ فِيهِمْ: قَدْ قَتَلْتُمْ صَاحِبَنَا. قَالُوا: مَا قَتَلْنَا وَلا عَلِمْنَا قَاتِلاً. فَانْطَلَقُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، انْطَلَقْنَا إِلَى خَيْبَرَ فَوَجَدْنَا أَحَدَنَا قَتِيلاً. فَقَالَ: «الْكُبْرَ الْكُبْرَ[1]». فَقَالَ لَهُمْ: «تَأْتُونَ بِالْبَيِّنَةِ عَلَى مَنْ قَتَلَهُ؟» قَالُوا: مَا لَنَا بَيِّنَةٌ!! قَالَ: «فَيَحْلِفُونَ». قَالُوا: لا نَرْضَى بِأَيْمَانِ الْيَهُودِ. فَكَرِهَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُبْطِلَ دَمَهُ، فَوَدَاهُ مِائَةً مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ[2].

فهذه -والله- قصة عجيبة!!

---

(١) الكبر الكبر: أي قدِّموا في الكلام أكبركم. انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١٢/ ٢٣٣، ٢٣٤.

(٢) البخاري: كتاب الديات، باب القسامة (٦٥٠٢)، واللفظ له، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب القسامة (١٦٦٩).

لقد تمت هذه القصة في زمن الصلح مع اليهود، وذلك كما جاء في رواية مسلم «وهي يومئذ صلح»، وهذا يعني أن القصة تمت بعد هزيمة اليهود في خيبر، وقبولهم الصُّلحَ مع رسول الله ﷺ؛ أي أن اليهود كانوا في موقف ضعف، والمسلمين في موضع قوة، ويستطيع المسلمون أن يفرضوا رأيهم بالقوة إنْ أرادوا.

وفي هذه الظروف قُتل أنصاري خزرجي اسمه عبد الله بن سهل رضي الله عنه، كما في رواية مسلم[1]، وتم هذا القتل في أرض اليهود، والاحتمال الأكبر والأعظم أن يكون القاتل من اليهود. ومع ذلك فليس هناك بينة على هذا الظن، والأمر في مجال الشك والظن، وهذا لا يُفلح في الدعوى؛ ولذلك لم يعاقب رسول الله ﷺ اليهود بأي صورة من صور العقاب، بل عرض فقط أن يحلفوا على أنهم لم يفعلوا!!

وقد أُسقط في يد الأنصار؛ فهم يعلمون أن اليهود لا يبالون بحلف كاذب، وعلموا أن حقهم سيضيع، لكن الرسول ﷺ لم يتأثر حكمه بحزن الأنصار، ولا رغبتهم غير المؤيدة بدليل، فرفض أن يغرِّم اليهود ديَّة، أو أن يقتل منهم أحدًا، أو أن يُنْزِلَ عليهم أي صورة من صور العقاب، فشعر الأنصار بالغُبن؛ كونهم لم يُعَوَّضُوا عن قتيلهم.

---

(١) مسلم: هو مسلم بن الحجاج، الإمام الحافظ حجة الإسلام أبو الحسين القشيري النيسابوري، يقال: ولد سنة ٢٠٤هـ، وهو صاحب الصحيح الذي هو تلو صحيح البخاري عند أكثر العلماء. توفي سنة ٢٦١هـ بنيسابور. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٣، والذهبي: تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٨٨.

وهنا يقوم رسول الله ﷺ بما لا يتخيله أحد.. إنه يتولى بنفسه دفع الدية من أموال المسلمين؛ لكي يهدِّئ من روع الأنصار، ودون أن يظلم اليهود.. فلتتحمل الدولة الإسلامية العبء في سبيل ألا يُطَبَّقَ حَدٌّ فيه شُبْهَةٌ على يهود!!

يقول العلامة الإمام النووي[١] تعليقًا على هذا الحدث: «إنما وداه رسول الله ﷺ (أي دفع ديته)؛ قطعًا للنزاع، وإصلاحًا لذات البين»[٢].

إنه ﷺ يريد أن يُغلق الباب تمامًا؛ فيُنسي الأنصار هذه القضية بعد أخذ الدية، ويأمن اليهود من أي تعدٍّ عليهم؛ انتقامًا للقتيل.

ألا ما أروع هذا الموقف وأعجبه!!

وأعظم من هذا الموقف وأروع ما كان منه ﷺ مع مسيلمة الحنفي، وهو الذي عُرِفَ بعد ذلك بمسيلمة الكذاب.. عندما جاء مع وفد بني حنيفة إلى المدينة المنورة في العام التاسع من الهجرة[٣]..

فقد روى ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَدِمَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَعَلَ يَقُولُ: إِنْ جَعَلَ لِي مُحَمَّدٌ الأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ تَبِعْتُهُ. وَقَدِمَهَا

---

(١) النووي: هو محيي الدين أبو زكريا النووي ثم الدمشقي الشافعي (٦٣١ - ٦٧٦هـ)، كبير الفقهاء في زمانه، ينسب إلى نوى من قرى حوران. اعتنى بالتصنيف فجمع شيئًا كثيرًا، ومما أكمله: شرح مسلم، والروضة، ومما لم يكمله: شرح المهذب الذي سماه المجموع، وصل فيه إلى كتاب الربا، فأبدع فيه وأجاد. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ٢٧٨.

(٢) النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١١/ ١٤٧.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٥/ ٤٨.

فِي بَشَرٍ كَثِيرٍ مِنْ قَوْمِهِ. فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ وَمَعَهُ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَفِي يَدِ رَسُولِ الله ﷺ قِطْعَةُ جَرِيدٍ، حَتَّى وَقَفَ عَلَى مُسَيْلِمَةَ فِي أَصْحَابِهِ فَقَالَ:

«لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ الْقِطْعَةَ مَا أَعْطَيْتُكَهَا، وَلَنْ تَعْدُوَ أَمْرَ الله فِيكَ، وَلَئِنْ أَدْبَرْتَ لَيَعْقِرَنَّكَ اللهُ، وَإِنِّي لأَرَاكَ الَّذِي أُرِيتُ فِيكَ مَا رَأَيْتُ».

فَأَخْبَرَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ فِي يَدَيَّ سِوَارَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ، فَأَهَمَّنِي شَأْنُهُمَا، فَأُوحِيَ إِلَيَّ فِي الْمَنَامِ: أَنِ انْفُخْهُمَا، فَنَفَخْتُهُمَا، فَطَارَا، فَأَوَّلْتُهُمَا كَذَّابَيْنِ يَخْرُجَانِ بَعْدِي». فَكَانَ أَحَدُهُمَا الْعَنْسِيَّ، وَالآخَرُ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابَ صَاحِبَ الْيَمَامَةِ[1].

وهذه -والله- قصة عجيبة أخرى..!!

فرسول الله ﷺ يرى إنسانًا يرفض مبايعته على الإسلام إلا بشرط، وقد بايع قومه أجمعون، ثم إن رسول الله ﷺ كان قد رأى رؤيا -ورؤيا الأنبياء حق- أن هذا الرجل سيدَّعِي النُّبُوَّةَ من بعده، وهو يعلم ﷺ خطورة هذا الأمر، ومدى الفتنة التي من الممكن أن تحدث من جرَّاء انتشار دعوته، وذيوع صيته، وبرغم كل هذه الأحداث الخطيرة، وبرغم قوة الرسول ﷺ والمسلمين في ذلك الوقت، وضعف بني حنيفة والعرب بصفة عامة.. برغم كل هذه الملابسات إلا أن رسول الله ﷺ لم يتَّخذ ضده أي

---

(١) البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤٢٤)، ومسلم: كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي ﷺ (٢٢٧٣).

إجراء عقابي أو ردعيّ، ولم يقيِّد حريته، ولم يحدّ من حركته..

وقد كان ذلك لأنه ﷺ لا يريد أن يُصدر عليه حكمًا نتيجة رؤيا أو وحي؛ ولأن مسيلمة لا يؤمن بالوحي أصلاً، وهو ما زال على شركه، ومن ثَمَّ لا يصدر ضده حكم إلا ببينة مادية، ودليل يراه مسيلمة يثبت أن هذا سيحدث في المستقبل.. ولأن هذا الدليل غير موجود بهذه الصفة، فقد ترك رسول الله ﷺ مسيلمة سالمًا، مع علمه ويقينه بالفتنة التي ستحدث بعد ذلك.

إنه العدل في أرقى صوره، بل إنه لا مجال للمقارنة بينه وبين صور العدل الأخرى الموجودة على سطح الأرض.

* * *

المبحث السادس

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

من صور عدله ﷺ مع غير المسلمين أنه كان لا يأخذُ الجميع بظلم الواحد، ولا يعمِّمُ في الأحكام؛ ففي كل قبيلة الصالح والطالح، وفي كلِّ فريق الوفي والغادر، ولا يعاقب رسول الله ﷺ أحدًا بذنبٍ ارتكبه آخرون، ولو كان هذا الذنب عظيمًا جدًّا.. قال سبحانه: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ومن الأمثلة البارزة في سيرته ﷺ، والتي تدلُّ بجلاءٍ على هذا المعني ما حدث من عمرو بن أمية الضمري[1] رضي الله عنه بعد حادثة بئر معونة[2]، والقصة بإيجاز كما رواها أَنسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَاهُ رِعْلٌ وَذَكْوَانُ وَعُصَيَّةُ وَبَنُو

(١) عمرو بن أمية الضمري: كان رسول الله ﷺ يبعثه في أموره، وكان من أشد العرب نجدة وجراءة. أول مشاهده بئر معونة وأسرته بنو عامر يومئذ، وأرسله رسول الله ﷺ إلى النجاشي يدعوه إلى الإسلام سنة ست، وكتب على يده كتابًا، فأسلم النجاشي. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ٦٨٩، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٥٧٦٥).

(٢) بئر معونة: بين أرض بني عامر وحرة بني سُليم، وهي أقرب إلى حرة بني سليم. وقيل: هي في طريق المصعد من المدينة إلى مكة وهي لبني سليم، وعندها كانت قصة الرجيع. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ٣٠٢.

لَحْيَانَ، فَزَعَمُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَسْلَمُوا وَاسْتَمَدُّوهُ عَلَى قَوْمِهِمْ، فَأَمَدَّهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِسَبْعِينَ مِنَ الأَنْصَارِ. قَالَ أَنَسٌ: كُنَّا نُسَمِّيهِمُ الْقُرَّاءَ، يَحْطِبُونَ بِالنَّهَارِ، وَيُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ. فَانْطَلَقُوا بِهِمْ حَتَّى بَلَغُوا بِئْرَ مَعُونَةَ غَدَرُوا بِهِمْ وَقَتَلُوهُمْ، فَقَنَتَ شَهْرًا يَدْعُو عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ وَبَنِي لَحْيَانَ[1].

فهذه كارثة أصابت المسلمين، وراح ضحية الغدر فيها سبعون من كرام الصحابة ﭫ أجمعين، ووصل الأسى والحزن برسول الله ﷺ أن مكث شهرًا كاملاً يدعو على هؤلاء الغادرين، وهذا ليس أمرًا معتادًا في حياته ﷺ، بل لعلها المرة الوحيدة التي وصل فيها حزنه إلى هذه الدرجة، ولم ينجُ من هذه الكارثة إلا صحابي واحد هو عمرو بن أمية الضمريُّ ﭬ، الذي أعتقه عامر بن الطفيل[2] لرقبة كانت على أمه، وعاد عمرو بن أمية إلى المدينة المنورة، وفي طريق عودته التقى برجلين من المشركين من بني عامر، وهي فرع من فروع بني سليم التي قامت بقتل الصحابة السبعين، فرأى عمرو بن أمية أن قتلهما يعدُّ ثأرًا لأصحابه، فقتلهما بالفعل، ثم فوجئ بوجود عهد لهما مع رسول الله ﷺ بالأمان، فعاد إلى رسول الله ﷺ وحكى له القصة، فماذا كان ردُّ فعله ﷺ؟!

لقد تناسى ﷺ أحزانه تمامًا، وحكَّم دينه وعقله، ولم يُحكِّم عاطفته

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب العون والمدد (٢٨٩٩)، وأحمد (١٣٧٠٨)، والبيهقي (٢٩١٥).

(٢) عامر بن الطفيل من زعماء قبيلة بني عامر، رفض الإسلام، وهدد رسول الله ﷺ بالحرب، فدعا عليه رسول الله ﷺ، وكان ممن غدر بالمسلمين في حادثة بئر معونة؛ مما أدى إلى استشهاد سبعين من الصحابة، وقد مات بدعوة رسول الله ﷺ.

وهواه.. لقد قال لعمرو بن أمية: «لَقَدْ قَتَلْتَ قَتِيلَيْنِ لأَدِيَنَّهُمَا»[1]. لقد قرَّر أن يدفع الدية لأهلهما!!

إنه ﷺ لم يقُلْ: لقد خان الآخرون العهد وقتلوا سبعين، فمن حقي أن أخونَ العهد وأقتل رجلين.. إنه لا يأخذ أحدًا بجريرة أحد.. الرجلان العامريان لم يخطئا، ولم يرتكبا ذنبًا يستحق القتل، ومعهما عهدٌ من رسول الله ﷺ؛ فلا يجب أبدًا أن يُقتلا مهما كانت الظروف.

وليست الأزمة السياسية فقط هي الأزمة الوحيدة التي حدثت نتيجة قتل الصحابة السبعين، بل كانت هناك أزمات أخرى تمر بها المدينة المنورة، وقد تكون هذه الأزمات عاملاً مؤثرًا في اتخاذ القرار، وأهم هذه الأزمات هي الأزمات الاقتصادية، فقد كانت المدينة المنورة تمر بحالة شديدة من الفقر والاحتياج، وخاصة أن هذه الأحداث تقع بعد غزوة أُحد بشهور، ومن ثَمَّ فهناك صعوبة كبيرة في تجميع القيمة المطلوبة لدفع الدية.. وسوف يحتاج رسول الله ﷺ أن يتعاون مع اليهود بموجب الاتفاقية التي بينهما لجمع الدية اللازمة، وقد يدخل في أزمة مع اليهود؛ بسبب هذا المال المطلوب.

إنها أزمات مركَّبة ومتعددة..

فليس العامل النفسي والقلبي هو الذي يؤثر على الموقف فقط، ولكن العامل الاقتصادي والسياسي أيضًا، ومع ذلك فإن الرسول ﷺ حرص

---

(١) الزيلعي: نصب الراية ٤/ ٣٩٦، وابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٨٥.

على أداء الدية، وبالفعل توجه إلى بني النضير ليسألهم المساهمة في الدية كما قضى الاتفاق الذي بين المسلمين واليهود، وكانت هذه الزيارة من رسول الله ﷺ إلى بني النضير سببًا في غزوة بني النضير كما هو معلوم في السيرة[1].

أهناك في العالم -القديم والحديث- عدلٌ على هذا المستوى؟!

وهل هناك من يدَّعِي بعد كل ذلك أن الرسول ﷺ كان لا يعترف أو لا يحترم أو لا يعدل مع غير المسلمين؟!

إن ما نرويه في هذه الصفحات لَيُعَدُّ في حسابات الكثير من الناس ضربًا من الخيال، أو لونًا من ألوان الأساطير، ولكن الإسلام يحقِّق فعلاً على أرض الواقع ما لا يمكن تَخَيُّلُهُ في الأحلام والتخيّلات.

وما قلناه في حق العامِرِيَّيْنِ اللذيْنِ قُتِلا، وموقف رسول الله ﷺ منهما يُعتبر نقطة في بحر إذا ما قِيس بما فعله ﷺ بأموال أهل مكة، التي كانت في حوزته قبل أن يهاجر إلى المدينة المنورة.

والموقف مشهور ومعروف، ولكن يحتاج إلى وقفات وتدبُّر..

لقد كان أهل مكة لا يثقون بأحد ثقتهم برسول ﷺ؛ ولذلك كانوا يحتفظون عنده بأموالهم وودائعهم، ولا غرو، فهو الصادق الأمين، وحتى بعد أن اشتدَّ الإيذاء به ﷺ، وحتى بعد أن وصفوه بالساحر والكذَّاب

---

(١) البخاري: كتاب المغازي، باب حديث بني النضير ومخرج رسول الله ﷺ إليهم في دية الرجلين وما أرادوا من الغدر برسول الله ﷺ. وانظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٨٣، وابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٨٤.

والكاهن والشاعر وغير ذلك من الصفات، كانوا لا يزالون يحافظون على عادتهم بحفظ الأموال عنده! وكان هو ﷺ لا يمتنع عن أداء هذا الدور حتى مع حربهم له.

ثم كانت الهجرة إلى المدينة المنورة، وكان تَرْكُ الديار والأموال والأعمال، وكان الظلم والتشريد والتنكيل، وكان تجاوز الحدود في كل ما هو سلبي من الأخلاق.. ومر رسول الله ﷺ بتجربة أليمة، وهي ترك أحب بلاد الله إلى قلبه، وذلك كما صرَّح هو بنفسه ﷺ بذلك قائلاً: «عَلِمْتُ أَنَّكِ خَيْرُ أَرْضِ اللهِ وَأَحَبُّ الأَرْضِ إِلَى اللهِ، وَلَوْلاَ أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ»[(١)]. وبرغم كل هذه الآلام إلا أن رسول الله ﷺ حرص على العدل إلى أقصى درجة ممكنة؛ فترك الودائع والأموال لعلي بن أبي طالب ﷺ، وأمره أن يردَّها إلى أهلها. وأقام علي بن أبي طالب ﷺ بمكة ثلاث ليالٍ وأيامها، حتى أدَّى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده[(٢)].

وما أحسب أن أحدًا في الأرض أتى بمثل ما أتى به رسول الله ﷺ من كمال العدل، ومن خصال الفضل.

إن أيَّ إنسانٍ مكانه قد يجد ألف تأويل ليُبَرِّر لنفسه أن يأخذ هذه

---

(١) الترمذي عن عبد الله بن عدي الزهري (٣٩٢٥)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب صحيح. وأحمد (١٨٧٣٧)، والدارمي (٢٥١٠)، والحاكم (٥٢٢٠)، والنسائي في سننه الكبرى (٤٢٥٢)، وفي مشكاة المصابيح (٢٧٢٥)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٧٠٨٩).

(٢) ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٢٧٠، وابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٢١، والمباركفوري: الرحيق المختوم ص١٦١.

الأموال، ولا يردها إلى أهلها.. قد يبرر ذلك بأنهم سرقوا أمواله وأموال المسلمين، وصادروا داره وديار المسلمين، فهذا في مقابل ذلك. وقد يبرر ذلك بأنهم أكرهوه على الخروج، ولم يخرج بإرادته. وقد يبرر ذلك بأنهم خططوا لقتله، وكانوا جادين في هذا التخطيط إلى درجة أنه أفلت منهم بمعجزة حقيقية في اللحظة الأخيرة قبل نجاح خطتهم الآثمة. وقد يبرر ذلك بأنه سيأخذ الأموال لتنتفع بها الدعوة الإسلامية، خاصةً وهي في أوائل أيامها في المدينة المنورة. وقد يبرِّر ذلك بأسباب أخرى كثيرة تخطر على بال العديد من الناس.

نعم، هناك مبررات كثيرة لفعل ما تريد، ولكن عندما تأتي إلى الحقيقة، وتتجرد من أي ميول شخصية أو أهواء ذاتية تدرك -بما لا يدع مجالاً للشكِّ- أن كل هذه المبررات غير مقبولة، وأن الحق أبلج واضح، وأن تطبيق العدل يحتاج إلى نفوس خاصة، وعزائم من طراز فريد.. إن هؤلاء المشركين الذين وضعوا أموالهم عنده ﷺ قد وضعوها بناء على اتفاق بينهم وبينه بحفظ الأمانة، ورسول الله ﷺ بموجب هذا الاتفاق أحرص عليهم وعلى أموالهم من آبائهم وأمهاتهم.. إنه لا يخون مهما كانت الظروف.. إنه لا يغدر مهما تعرض لإيذاء.. إن العدل يقتضي ألا يُؤاخَذَ أولئك الذين وثقوا فيه بجريرة أولئك الذين حاولوا -وما زالوا يحاولون- أن يقتلوه.. إنهم مشغولون بمطاردته لقتله، وهو مشغول بردِّ ودائعهم إليهم..!!

لقد كانوا في قمة الغدر، وكان هو في قمة الوفاء!

إنهم مشركون، وإنه رسول رب العالمين!

والفارق بينهم وبينه أبعد من الفارق بين السماء والأرض.

والجميل في الأمر أنه ﷺ يفعل كل ذلك دون تَكَلُّفٍ ولا تَفَضُّلٍ.. إنه لا يطير بهذا الموقف في الآفاق ليتحدث عن نفسه كيف فعل وفعل، إنه لا يأمر أصحابه من الشعراء والأدباء أن يسهبوا في الحديث عن مواقفه وأعماله.. لقد كان يُغْفِلُ كلَّ ذلك لأن الله ﷻ أمره بكلِّ خُلُقٍ كريمٍ، فهو متجرِّدُ النية لله، مخلص العمل له ﷻ، لا يرجو من عباد الله جزاءً ولا شكورًا ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦].

فصلِّ اللهم عليك وسلِّم يا إمامَ العادلين، وسيِّد النبيين والمرسلين.

* * *

المبحث السابع

العدل مع شدة الكراهية

من صور عدل الرسول ﷺ الباهرة أنه كان لا يتجاوز في العقاب مهما كان الجرم شنيعًا، ومهما كان تجاوز الآخرين في حقه وحق المسلمين عظيمًا..

يروي أُبيُّ بن كعب ﷺ: أنه لما كان يوم أُحُدٍ أُصيب[1] من الأنصار أربعة وستون رجلاً، ومن المهاجرين ستة فيهم حمزة، فَمَثَّلُوا بهم؛ فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يومًا مثل هذا لَنُرْبِيَنَّ[2] عليهم. فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦]. فقال رجل: لا قريش بعد اليوم. فقال رسول الله ﷺ: «كُفُّوا عَنِ الْقَوْمِ إِلاَّ أَرْبَعَةً»[3].

فمع شدة مصاب يوم أحد، ومع شدة ألم رسول الله ﷺ إلا أنه يطبِّق شرع الله ﷻ؛ فلا يسمح بتجاوز، ولا يقبل بتعدٍّ، ولا يتمناه.

---

(١) أي: استشهد.

(٢) أي: لنزيدن في القتل عن هذا العدد.

(٣) الترمذي عن أبي بن كعب (٣١٢٩)، وابن حبان (٤٨٧)، والحاكم (٣٣٦٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٧٠٤)، والنسائي في سننه الكبرى (١١٢٧٩)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وقال الألباني: حسن صحيح الإسناد.

أما ما رُوي عن سبب نزول الآية: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ من أن رسول الله ﷺ قال عندما رأى حمزة ﷺ ممثَّلاً به يوم أحد: «لأُمَثِّلَنَّ بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ»[1]. فقد ضعَّفه ابن حجر في الفتح[2]، ويعارضه الحديث السابق الذي يذكر أن الآية نزلت عند فتح مكة وليس في أُحد. كما أنه ليس من طبيعة رسول الله ﷺ أن يخرج عن شعوره، أو يتكلم بعاطفته دون عقله، وحتى إنْ صَحَّ الحديث فيُحمل على أنه كان هاجسًا عارضًا ما لبث أن انهار وتلاشى أمام الآية الكريمة، فقد كان ﷺ وقَّافًا عند كتاب الله، لا يأخذ قرارًا في شيء ثم يرى ما هو أفضل إلاَّ ترك الشيء الأول، وفعل ما يراه أعدل وأجمل.. قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ»[3].

ومن صور عدله الرائعة أيضًا أنه ﷺ لم يكن ليندفع إلى ظلم حتى مع شدة كراهيته أحيانًا لشخص ما، وهو بذلك يُطبِّق الآية الكريمة الجامعة: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ[4] قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ﴾[المائدة: ٨].

---

(١) الحاكم (٤٨٩٤)، وقال الذهبي في التلخيص: «صالح» واهٍ، وهو من رواة الحديث. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه البزار والطبراني، وفيه صالح بن بشير المري وهو ضعيف. وقال الألباني: ضعيف. انظر: السلسلة الضعيفة (٥٥٠).

(٢) ابن حجر: فتح الباري ٧/ ٣٧١.

(٣) مسلم عن أبي هريرة: كتاب الإيمان، باب نذر من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها (١٦٥٠)، وأبو داود (٣٢٧٤)، والترمذي (١٣٥٠)، والنسائي (٣٧٨١)، وابن ماجه (٢١٠٨)، وأحمد (٨٧١٩).

(٤) شدة المقت والكراهية.

ومن هذا ما رأيناه منه ﷺ وهو يتحدث مع رسولَيْ مسيلمة الكذاب، فهذان الرسولان جهرا بأنهما يؤمنان بمسيلمة الكذاب، ويتبعانه في دينه، وهذا يعني أنهما من المرتدين الذين تحل دماؤهم.. وقد قال ﷺ: «لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»(١).

فهذا حكم الذي ارتدَّ عن دينه وترك الجماعة.. وهذان لم يرتدا فقط، ولم يكتفيا بترك الجماعة، ولكنهما يقومان بفتنة الناس، والدعوة إلى اتّباع مسيلمة، بل جاءا يساومان رسول الله ﷺ على اقتسام النبوة أو تبادلها، فلو سار الإنسان مع هواه، ونظر في المصالح دون مراعاة للشرع ولا لمطلق العدل، لكان قتلهما أمرًا هينًا متوقعًا.. لكن رسول الله ﷺ في هذا الموقف العجيب يحفظ دماءهما؛ لأنهما من الرسل، والرسل -عُرْفًا- لا تُقتل، والشرع يقرُّ ذلك العرفَ ويؤكده.. لقد قال رسول الله ﷺ مخاطبًا الرسولَين المرتدَّين: «أَمَا وَاللهِ! لَوْلاَ أَنَّ الرُّسُلَ لاَ تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا»(٢).

إن رِدَّةَ هذين الرسولين وكفرهما وخطورة أمرهما لم تدفعه ﷺ إلى ظلمهما أو إلى التعدي عليهما، بل أَمَّنَهُمَا وتعامل معهما بمنتهى الرقي، وعاش مؤكِّدًا على هذا المنهج القويم حتى مع مخالفة أعدائه له، بل إن

---

(١) البخاري عن عبد الله بن مسعود: كتاب الديات: باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ (٦٤٨٤)، ومسلم: كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم (١٦٧٦)، واللفظ له.

(٢) أبو داود (٢٧٦١)، والحاكم (٢٦٣٢)، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرِّجاه. وأحمد (١٦٠٣٢)، وقال الألباني: حسن. انظر: صحيح الجامع (١٣٣٩).

مسيلمة الكذاب نفسه لما ظفر بأحد رسل المسلمين وهو حبيب بن زيد[١] رضي الله عنهما قطعه عضوًا عضوًا، حتى لقي حبيبٌ ربَّهُ شهيدًا؛ لتظهر الصورة أكثر وأكثر، وليعرف الجميع الفرق الشاسع بين المنهج الإسلامي والمناهج الأخرى، وليدرك كل مُطَّلعٍ المسافاتِ الهائلةَ بين قانون السماء وقوانين الأرض.

ويجدر بنا -ونحن نختم هذا الفصل المهم من فصول سيرة رسول الله ﷺ مع غير المسلمين، ومنهجه العادل في التعامل معهم- أن نعرض لموقف أخير، لعله -بلا مبالغة- أعجب من كل ما سبق في هذا الفصل!!

ألا وهو موقفه من اليهود الذين دسُّوا له السُّمَّ؛ ليقتلوه بعد فتح خيبر..

يروي أبو هريرة رضي الله عنه فيقول: لما فُتحت خيبر أُهديَتْ للنبي ﷺ شاة فيها سُمٌّ، فقال النبي ﷺ: «اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ». فجُمعوا له فقال: «إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ؟» فقالوا: نعم. قال لهم النبي ﷺ: «مَنْ أَبُوكُمْ؟» قالوا: فلان. فقال: «كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلَانٌ». قالوا: صدقت. قال: «فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفتَ كَذِبَنَا كما عَرَفْتَهُ في أبينا. فقال ﷺ لهم:

---

(١) حبيب بن زيد الأنصاري النجّاري، بعثه رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب باليمامة، فكان مسيلمة إذا قال له: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم، وإذا قال له: أتشهد أني رسول الله؟ قال: أنا أصم لا أسمع! حتى قُتِلَ شهيدًا. انظر: ابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (١٥٨٠)، وابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٣٢٨، وابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٥٠٤.

«مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟» قالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفونا فيها. فقال النبي ﷺ: «اخْسَئُوا فِيهَا! وَاللهِ لاَ نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا». ثم قال ﷺ: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟». فقالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: «هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟» قالوا: نعم!! قال ﷺ: «مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟» قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا نستريح، وإن كنت نبيًّا لم يضرَّك[1].

لقد قام رسول الله ﷺ بتحقيقٍ هادئ غير منفعل مع اليهود الذين دبَّروا مؤامرةَ اغتياله، وأقام عليهم الحُجَّة حتى اعترفوا بألسنتهم بأنهم دَبَّروا محاولةَ القتل، واكتشف ﷺ أن هذه المجموعة من اليهود قد أمرت إحدى نساء اليهود لتضع السُّمَّ بنفسها في الشاة، ثم تقدمها إلى رسول الله ﷺ.. فالرجال هم الذين أمروا، والتي نفذت الأمر وباشرت الفعل هي المرأة.

وقبل أن تعرف ردَّ فعله ﷺ لهذه المؤامرة توقفْ لحظاتٍ مع واقع غيره من الزعماء والرؤساء والملوك، وردود أفعالهم لمن دبَّر مؤامراتٍ لاغتيالهم..!! إن أبسط ما يمكن تخيُّلُهُ في هذه اللحظات أن يُقتَل الذي باشر الفعل، والذي أمر به، والذي عَلِم به، والذي رضي به.. وقد يؤخذ عموم أهل البلدة أو المدينة بفعل هذا الرجل.. إن هذا هو الواقع فعلاً دون مبالغة.

---

(١) البخاري: كتاب الطب، باب ما يُذكر في سمِّ النبي ﷺ (٢٩٩٨)، وأبو داود (٤٥٠٨)، وأحمد (٩٨٢٦).

فماذا كان حال رسولنا ﷺ؟!

لقد قال الصحابة ﷺ لرسولنا ﷺ: ألا تقتلها؟! فرفض ﷺ؛ لأنها محاولةُ قتلٍ، وليست قتلاً فعلاً!! فلا يجوز قتلها.

ثم إنه ﷺ لم يعاقبها، ولا مَنْ أمرها من اليهود بأي عقابٍ؛ لأنه قَبِلَ حُجَّتَهُمْ: لو كان كاذبًا استراحوا، ولو كان نبيًّا لم يضره.

لقد قَبِلَ ﷺ حُجَّتهم مع أنَّ أحدًا منهم لم يؤمن؛ مما يوضح أنهم لم يفعلوا ذلك أملاً في ظهور الحقيقة، ولكن فعلوا ذلك حَسَدًا من عند أنفسهم، وبُغضًا لرسول الله ﷺ.

ومع كل ذلك، لم يعاقبهم..

غير أن أحد الصحابة وهو بشر بن البراء بن معرور[1] رضي الله عنهما كان قد أكل مع رسول الله ﷺ من الشاة المسمومة، فمات مقتولاً بسُمِّهَا، فهنا أمر رسولُ الله ﷺ بقتل المرأة قصاصًا، ولم يُقْتَل معها أحدٌ من أهل خيبر. يقول القاضي عياض[2] رحمه الله: «لم يقتلها رسول الله ﷺ أولاً حين اطَّلع على سُمِّهَا،

---

(١) بشر بن البراء بن معرور الأنصاري الخزرجي، شهد العقبة وبدرًا وأحدًا والخندق، ومات بخيبر حين افتتاحها سنة سبع من الهجرة، من تلك الأكلة التي أكلها مع رسول الله ﷺ، قيل: إنه لم يبرح من مكانه حين أكل منها حتى مات. ابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٦٥٤)، وابن الأثير: أسد الغابة ١/ ١١٥، ١١٦، وابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ٥١.

(٢) القاضي عياض: هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (٤٧٦- ٥٤٤هـ = ١٠٨٣- ١١٤٩م)، كان إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم. وَلِي قضاء سبتة، ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة، وتوفي بمراكش. الزركلي: الأعلام ٥/ ٩٩.

وقيل له: اقتُلْها، فقال: لا، فلما مات بشر بن البراء من ذلك سلَّمها لأوليائه، فقَتَلوها قِصَاصًا»[1].

تُرَى ماذا يكون تعامل قُوَّاد العالم في التاريخ والواقع مع مَنْ يدبِّرون مؤامراتٍ لقتلهم؟! وماذا سيكون ردُّ فعل هؤلاء الزعماء عند مقتل أصحابهم وأحبابهم؟!!

عند القياس سيزول الالتباس!!

وعند المقارنة ستتضح المفارقة!!

إنه لا ينبغي لأحد من أهل الأرض -كائنًا من كان- أن يقارن أخلاقَ أحدٍ بأخلاق رسول الله ﷺ؛ فأخلاقُ عمومِ البشرِ شيءٌ، وأخلاقُ النبوةِ شيءٌ آخر تمامًا..

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٢١].

***

(١) النووي: شرح مسلم ١٤/ ١٧٩.

الفصل الخامس

البرُّ بغير المسلمين



تتوق أحلام العقلاء من الناس أن يتعايشوا في سلام وتفاهم مع المخالفين لهم في العقيدة والجنس والأفكار، وقد تتطور هذه الأحلام والآمال فتطلب احترامًا متبادلاً بين الأطراف المختلفة، أو تطلب عدلاً في التعامل؛ فلا ظلم ولا عدوان.

وقد يحلم القليل بما هو أسمى وأرقى، وهو أن يصل التعامل -ولو في موقف من المواقف- إلى درجة الألفة والإحسان؛ فتتبادل الابتسامات -وأحيانًا الهدايا- ويسود جوٌّ من الهدوء والأمان.

لكن أن يصبح الإحسان إلى المخالفين، والبرِّ بالمعارضين، قانونًا أصيلاً يُتَّبَعُ في غالب مظاهر الحياة، فهذا ما لا يخطر على بال أحد!!

هذا هو الإسلام الذي لا يعرفه كثير من العالمين، بل قد لا يعرفه كثير من المسلمين..!!

في هذا الفصل -بحول الله تعالى- سنتناول هذا البِرَّ النبوي بغير المسلمين، وذلك من خلال المباحث الثلاثة التالية:

المبحث الأول: البرُّ بغير المسلمين منهج إلهي

المبحث الثاني: برُّه ﷺ بغير المسلمين

المبحث الثالث: البِرُّ بمن آذاه ﷺ من غير المسلمين

المبحث الأول

البرُّ بغير المسلمين منهجٌ إلهيٌّ

ينبع جمال المنهج الإلهي في البِرِّ بغير المسلمين من كونه ليس قانونًا بشريًّا يصطلح الناس على إقراره أو إلغائه، ولكن من كونه قانونًا إلهيًّا سماويًّا، يتعبد المسلمون لربهم بتطبيقه..

يقول تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨].

ألا ما أعظمه من إلهٍ! وما أرحمه من ربٍّ!

إنه ﷻ يوصي المؤمنين أن يَبَرُّوا طائفة من البشر رفضت دعوة الله ﷻ، وخالفت نبيه ﷺ، واتبعت منهجًا مخالفًا لما أراده سبحانه!!

والمسلمون يتقرَّبون إلى ربهم ببرِّ هؤلاء المخالفين لهم في العقيدة، ما داموا لم يحاربوهم أو يظلموهم!!

و﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾ -كما يقول ابن كثير في تفسيره- أي: تحسنوا إليهم[1].

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٤٧.

والبرُّ درجة أعلى من القسط، بدليل أن الله ﷻ أضاف القسط إليها فقال: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾.

ولاحظ أن الله ﷻ جاء بكلمة لا تُستخدم إلا في أعظم صور التعامل وأرقاها، فهي تستخدم في وصف صورة التعامل بين الأبناء وآبائهم وأمهاتهم، كما يقول رسول الله ﷺ عندما سُئِل عن أي العمل أحب إلى الله فقال: «الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا». قال السائل: ثم أيٌّ؟ قال: «ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ»[1].

وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]..

ومثال ذلك كثير في القرآن والسُّنَّة، وكلها يشير إلى عظم قيمة «البِرِّ».

فهذه هي الدرجة التي يريد الله منا أن نتعامل بها مع غير المسلمين في حالة عدم حربهم لنا..

وإذا كان هذا القانون معجزًا في سُمُوِّه ورُقِيِّه، فقد كانت سيرة رسول الله ﷺ معجزة أيضًا في تطبيق هذا القانون وممارسته.

* * *

(١) البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة على وقتها (٥٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (٨٥).

المبحث الثاني

برُّه ﷺ بغير المسلمين

لقد كانت العلاقة بينه ﷺ وبين المخالفين له أعلى بكثير من مجرد علاقة سلام ووئام، إنها كانت علاقة «بِرٍّ» بكل معاني الكلمة.

ونحن لا نخالف الحقيقة إذا قلنا: إن رسول الله ﷺ كان يعامل غير المسلمين المحيطين به معاملة الرجل لأهله، فها هو أنس ﷺ يروي موقفًا عجيبًا من مواقف رسول الله ﷺ فيقول: «كان غلام يهودي يخدُم النبي ﷺ، فمرض، فأتاه النبي ﷺ يَعُودُهُ، فقعد عند رأسه فقال له: «أَسْلِمْ» فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطِعْ أبا القاسم. فأسلم، فخرج النبي ﷺ يقول: «الْحَمْدُ لله الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ»[1].

وتدبر جيدًا بعقلك وقلبك!

هذا رسول الله ﷺ يستعمل غلامًا يهوديًّا في الخدمة، ولا يمتنع عن ذلك؛ ليجعل الحياة مع أصحاب الديانات الأخرى في داخل المدينة المنورة حياة طبيعية. ثم يمرض هذا الغلام، فيذهب رسول الله ﷺ ليعوده في بيته!!

إننا يجب أن ندرك -لنعرف قيمة الموقف- أن رسول الله ﷺ هو أعلى

---

(١) البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلَّى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام (١٢٩٠)، والترمذي (٢٢٤٧)، والنسائي في سننه الكبرى (٧٥٠٠).

سلطة في المدينة المنورة، والغلام اليهودي لا يعدو أن يكون خادمًا، وعلى غير مِلَّة الإسلام!

أيحدث في بقعة من بقاع الأرض أن يزور رئيس البلاد خادمًا له إذا مرض، وخاصة إذا كان على غير دينه؟!

إننا قد اعتدنا أن نقرأ مثل هذه المواقف عن حبيبنا ﷺ فلم نعُدْ نحلِّل وندرس، ولكن الوقوف للتدبُّر في مثل هذه الكنوز يعطينا فيضًا هائلاً من الخير والحكمة.

ثم إنه ﷺ لا ينسى وظيفته الأولى في الدنيا وهي البلاغ؛ فيدعوه للإسلام، فيُسلِم الغلام، فيخرج النبي ﷺ فرحًا بإسلامه، كأنما أسلم أحد أحب أهله إليه.

إن هذا هو البرُّ -حقيقةً- في أسمى صوره.

وهذه أسماء بنت أبي بكر[1] رضي الله عنها تحكي فتقول: قدمت عليَّ أمي[2] وهي مشركة في عهد قريش، إذ عاهدوا رسول الله ﷺ، فاستفتتْ رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أمي قدمت عليَّ وهي راغبة، أَفَأَصِلُهَا؟

---

(١) هي أسماء بنت أبي بكر الصديق، كانت تحت الزبير بن العوام، وكان إسلامها قديمًا بمكة، ثم هاجرت إلى المدينة وهي حامل بعبد الله بن الزبير، فوضعته بقباء. وقد توفيت بمكة في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين بعد مقتل ابنها عبد الله بن الزبير بيسير. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٦/ ١٢، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (١٠٧٩١).

(٢) هي قُتيلة بنت سعد من بني عامر بن لؤي، امرأة أبي بكر الصديق، وهي أم عبد الله وأسماء. ذكرها ابن الأثير في الصحابيات، وقال: تأخر إسلامها. قدمت إلى المدينة وهي مشركة بعد صلح الحديبية. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٦/ ٢٤٢.

قال: «نَعَمْ، صِلِيهَا»[١].

ها هو ﷺ يأمر أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أن تصل أمها المشركة، ومع أن دولة قريش في ذلك الوقت كانت دولة محاربة، ولكنها في عهد مؤقت، فلم يمنع المرأة المشركة من دخول المدينة، ولا دخول بيت أسماء رضي الله عنها، وهو بيت الزبير بن العوام[٢] رضي الله عنه، وهو من كبار رجال المدينة، وقد يكون لديه من الأسرار ما لا يجب أن يطَّلع عليه المشركون، ومع ذلك فإن رسول الله ﷺ لا يَحْرِمُ أمًّا مشركة من زيارة ابنتها المسلمة، ولا يحرم بنتًا مسلمة من بِرِّ أمها المشركة.

هكذا بمنتهى التسامح وبأعلى درجات الرضا.. إنه لم يفكر ولم يتردد.. فليس في البرِّ تردُّد!!

وفي موقف آخر لطيف يرويه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ويذكر فيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى حُلَّة سيراء[٣] عند باب المسجد، فقال: يا رسول الله، لو اشتريتَ هذه فلبستَها يوم الجمعة وللوفد إذا قدموا عليك. فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا يَلْبَسُ هَذِهِ مَنْ لاَ خَلاَقَ لَهُ فِي الآخِرَةِ». ثم جاءت رسولَ الله ﷺ منها حُلَلٌ، فأعطى عمر بن الخطاب رضي الله عنه منها حُلَّةً، فقال عمر: يا رسول الله، كَسَوْتَنِيهَا وقد قلت في حُلَّة عطارد ما قلت؟! قال

(١) البخاري: كتاب الهبة وفضلها، باب الهدية للمشركين (٢٤٧٧)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين (١٠٠٣).

(٢) هو الزبير بن العوام، يُكنى أبا عبد الله، أمه صفية بنت عبد المطلب بن هاشم، لم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ. كان أول من سلَّ سيفًا في الإسلام، وقد استشهد رضي الله عنه يوم الجمل. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ١٥١، وابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٣٧٧، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٢٧٩١).

(٣) حُلَّة سيراء: من الحرير الخالص، وهي مُحَرَّمة على الرجال.

رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَمْ أَكْسُكَهَا لِتَلْبَسَهَا». فكساها عمر بن الخطاب ﷺ أخًا بمكة مشركًا[١]!!

فعمر ﷺ يُهْدِي هذه الحُلة لأحد إخوانه المشركين[٢]، ورسول الله ﷺ لا يعترض، وإقراره ﷺ -كما هم معلوم- سُنَّة.

يقول الإمام النووي ﷺ معلقًا على هذا الموقف: «وفي هذا دليلٌ لجواز صلة الأقارب الكفار، والإحسان إليهم، وجواز الهدية إلى الكفار»[٣].

بل إن رسول الله ﷺ فعل ما يَتَعَجَّبُ منه كثير من الناس، وهو السماح لنصارى نجران أن يؤدوا صلواتهم داخل المسجد النبوي!!

يقول ابن سيد الناس[٤] ﷺ في عيون الأثر: «وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ يصلون، فقال رسول الله ﷺ: (دَعُوهُمْ)، فَصَلَّوْا إلى المشرق»[٥].

إنهم لا يدخلون المسجد النبوي فقط، بل يصلون فيه، وفي هذا ما لا يخفى على أحد من البرِّ والتسامح.

---

(١) البخاري: كتاب الجمعة، باب يلبس أحسن ما يجد (٨٤٦)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة (٢٠٦٨).

(٢) عثمان بن عبد حكيم، وهو أخو عمر من أمه، ومُختَلف في إسلامه بعد ذلك. انظر: ابن حجر: فتح الباري ١/ ٣٣١.

(٣) النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٤/ ٣٩.

(٤) ابن سيد الناس: هو محمد بن أبي عمرو، الإمام أبو الفتح الأندلسي، الشهير بابن سيد الناس (٦٦١ - ٧٣٤هـ)، كان صدوقًا في الحديث حجة فيما ينقله، له بصر نافذ بالفن وخبرة بالرجال وطبقاتهم. من تصانيفه: بشرى اللبيب بذكر الحبيب. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات ١/ ١٢٦، والباباني: هدية العارفين ١/ ٥٢٨.

(٥) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٣٤٨.

المبحث الثالث

البِرُّ بمن آذاه ﷺ من غير المسلمين

على الرغم من روعة المواقف السابقة وعظمتها، فإننا قد نستوعبها ونفهمها.. لكن الذي يصعب استيعابه حقًّا هو برُّه ﷺ بأولئك الذين آذوه واشتدوا في إيذائه؛ فقد يكون مطلوبًا من الإنسانِ الكريمِ الخُلُق أن يتعامل بالعدل مع من اعتدى عليه وظلمه، أما أن يتعامل بالفضل والبر والإحسان، فهذا أمر عجيب حقًّا!!

إننا كثيرًا ما نقرأ قول رسول الله ﷺ: «صِلْ مَن قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ»[1]، فنعتقد أن الأمر مقصور على المسلمين، ونحن معذورون في ذلك؛ لأن وصل القاطع، وإعطاء الذي حَرم، والعفو عمن ظلم – أمرٌ صعب، حتى لو كان الفاعل مسلمًا، فما البال لو كان غير مسلم؟!

ومع ذلك، فالأمثلة في حياة رسول الله ﷺ على هذه الشاكلة كثيرة جدًّا، وكلها آيات في سُمُوِّ الأخلاق، وقمة الأدب.

ولقد فعل رسول الله ﷺ ذلك مع الأفراد والجماعات، وفعله مع

---

(١) رواه أحمد (١٧٤٨٨)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن.

القبائل والمدن.. فيروي جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قاتل محارب خصفة[1] بنخل، فرأوا من المسلمين غِرَّةً، فجاء رجل منهم يقال له: غورث بن الحارث حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف، فقال: من يمنعك مني؟ قال: «اللهُ». فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ فقال: «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟!» قال: كن كخير آخذ. قال: «أَتَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ؟» قال: لا، ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلَّى سبيله!! قال: فذهب إلى أصحابه[2] قال: قد جئتكم من عند خير الناس»[3].

فهذا رجل أمسك السيف، ووقف به على رأس رسول الله ﷺ يتهدده بالقتل، ثم نجَّى الله ﷻ رسوله، وانقلبت الآية، فأصبح السيف في يد رسول الله ﷺ، ومع ذلك فالحقد والغلُّ لا يعرفان طريقهما أبدًا إلى قلبه ﷺ.. إنه يعرض عليه الإسلام، فيرفض الرجل، ولكن يعاهده على عدم قتاله، فيقبل منه رسول الله ﷺ ببساطة، ويعفو عنه، ويطلقه آمنًا إلى قومه!!

ولم يكن رسول الله ﷺ يكتفي بالعفو والتفضل والبرِّ مع الأفراد دون القبائل والجماعات، بل كان يُطْلِق عفوه هذا على أقوام كُثُر، وعلى مدن عظيمة بها المئات والآلاف ممن اعتدوا عليه، وتمادوا في إيذائه..

---

(١) محارب خصفة بن قيس بن غيلان من بطون عدنان.

(٢) ذكر ابن حجر أن قومه أسلموا. انظر: ابن حجر: فتح الباري ٧/ ٤٢٨.

(٣) البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع (٣٩٠٥)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب توكله على الله تعالى وعصمة الله تعالى له من الناس (٨٤٣).

إنه رأى من قريش ما لا يوصف من العنت والإيذاء.. آذوه في نفسه، وفي أصحابه.. آذوه جسديًّا ومعنويًّا.. لم يتركوه في مكة ولا في المدينة، وطاردوا أصحابه في كل مكان حتى تابعوهم في الحبشة..!!

إنها حرب طويلة مريرة لسنوات طويلة..!!

ويأتي يوم أحد لتتفاقم المأساة، ويشتد الخطب، وتعظم المصيبة، ويقتل القرشيون سبعين من خيرة الصحابة، ويمثل القرشيون بأجساد الشهداء - وفي مقدمتهم حمزة ﷺ- في مخالفة واضحة لأعراف وقيم الجزيرة العربية، ويتقطع رسول الله ﷺ ألمًا وهو يرى أجساد أصحابه ممزقة على أرض أُحد، ويتربصون به ﷺ شخصيًّا، ويجرحونه في كل موضع من جسده حتى لا يقوى على القيام في صلاة الظهر فيصلي جالسًا، وتتفجر الدماء من وجهه ﷺ، وتُبْذَلُ المحاولات المضنية لوقف النزيف، ويُحَاصَرُ الرسول ﷺ وبعض أصحابه في الجبل..

إنها لحظة من أشد لحظات حياته ﷺ شدة وقسوة..!!

في هذا الجو من الألم والحزن والضيق، يمسح ﷺ الدم عن وجهه ويقول: «رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ»[1]!!

إنه يعاملهم معاملة الأب الحنون الذي يرى ابنه عاقًّا ومنحرفًا ومؤذيًا

---

(١) البخاري: كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب إذا عرَّض الذمي بسب النبي ﷺ ولم يصرح نحو قوله: السام عليكم (٦٥٣٠)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير: باب غزوة أحد (١٧٩٢).

له وللمجتمع، فيرفع يده للسماء ليدعو له، لا ليدعو عليه.

وتستمر تحديات قريش لرسول الله ﷺ، وتتعدد الجولات، وتحرص قريش في يوم الأحزاب على استئصال خضراء المسلمين جميعًا، ولكنها تفشل بعد أن جمعت عشرة آلاف مقاتل من الجزيرة العربية، وتمنع الرسولَ ﷺ من دخول مكة للعمرة في العام السادس.

ثم يكون صلح الحديبية، وتنقض قريش العهد، ويذهب رسول الله ﷺ بجيشه العملاق، ويدخل مكة فاتحًا بعد أكثر من عشرين سنة من الاضطهاد والتعذيب له ولأصحابه، ويجتمع القوم الذين لم يُدركوا قيمة (العظيم) الذي كان يعيش بينهم.. ويتوقع الجميع يومًا داميًا تُعوَّض فيه آلام السنوات السابقة، ويقف المتكبرون من أهل قريش في ذِلَّةٍ وصَغار أمام رسول الله ﷺ ينتظرون حُكمًا رادعًا بقتلٍ، أو نفي، أو استرقاق..

ويتساءل الرسول العظيم ﷺ في رقَّةٍ وتلطفٍ وتواضع: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تُرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟» قالوا: خيرًا، أخٌ كريم، وابنُ أخٍ كريم. قال:

«اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»[1]!!

هكذا..!!

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٤١١، وابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٣٥٦، والسهيلي: الروض الأنف ٤/ ١٧٠، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٥٧٠. وانظر: ابن حجر: فتح الباري ٨/ ١٨، وقال الألباني: سنده ضعيف مرسل.

دون عتاب ولا لوم ولا تقريع!!

إنه لمن أعجب مواقف التاريخ حقًّا!!

وليس الموقف عجيبًا بالنسبة لنا فقط، بل كان عجيبًا بالنسبة للصحابة المعاصرين له ﷺ أجمعين..

لقد قال سعد بن عبادة ﷺ وهو يخاطب أبا سفيان زعيم مكة: «يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستحل الكعبة»[(١)].

وما ذكره سعد بن عبادة ﷺ لا يعدُّ عجيبًا، ولا يعتبر تعدِّيًا منه أو قسوة، فهذا الذي ذكره هو المتوقَّع بعد تلك الرحلة الطويلة من الصدِّ، والإعراض من أهل مكة.

لكن كلمة سعد بلغت رسول الله ﷺ، فقال: «كَذَبَ سَعْدٌ[(٢)]، وَلَكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ اللهُ فِيهِ الْكَعْبَةَ، وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الْكَعْبَةُ»[(٣)]. وفي رواية أنه ﷺ قال: «الْيَوْمُ يَوْمُ الْمَرْحَمَةِ، الْيَوْمَ يُعِزُّ اللهُ فِيهِ قُرَيْشًا»[(٤)].

وقد تعجَّب الأنصار ﷺ من هذا البرِّ غير المسبوق، فقال بعضهم لبعض: أمَّا الرجل[(٥)] فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته!!

---

(١) البخاري: كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ رايته يوم الفتح (٤٠٣٠).

(٢) يقول الحافظ ابن حجر: كذب؛ أي: أخطأ، وغير إطلاق الكذب على الإخبار بغير ما سيقع، ولو كان قائله بناه على غلبة ظنه وقوة القرينة. انظر: ابن حجر: فتح الباري ٨/ ٩.

(٣) البخاري: كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ رايته يوم الفتح (٤٠٣٠)، ورواه البيهقي في سننه الكبرى (١٨٠٥٨).

(٤) انظر: ابن حجر: فتح الباري ٨/ ٩.

(٥) يقصدون رسولَ الله ﷺ.

قال أبو هريرة: وجاء الوحي، وكان إذا جاء الوحي لا يخفى علينا، فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضي الوحي، فلما انقضى الوحي قال رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ». قالوا: لبيك يا رسول الله. قال: «قُلْتُمْ: أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ؟» قالوا: قد كان ذاك. قال: «كَلاَّ، إِنِّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، هَاجَرْتُ إِلَى اللهِ وَإِلَيْكُمْ، وَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ». فأقبلوا إليه يبكون، ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضنَّ بالله وبرسوله. فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ وَيَعْذِرَانِكُمْ»[1]!!

إن الموقف أكبر من استيعاب الأنصار ﷺ مع عظم أخلاقهم وحسن سريرتهم، والرسول ﷺ يعلم أن استيعاب مثل هذا الموقف صعب، فيقول: «إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ وَيَعْذِرَانِكُمْ»!!

ولم يكن هذا الموقف العظيم هو الوحيد في ذلك اليوم المشهود، ولكن كانت هناك مواقف أخرى لعلها أكثر عجبًا، سنأتي لشرحها -إن شاء الله- في الفصل القادم.

وكما فعل رسول الله ﷺ مع أهل مكة، فعل مع أهل الطائف، وهي ثاني أعظم مدينة في الجزيرة العربية بعد مكة، وبها قبيلة ثقيف من أهم القبائل العربية..

---

(١) مسلم: كتاب الجهاد، باب فتح مكة (١٧٨٠)، وأبو داود (٣٠٢٤) مختصرًا، والنسائي (١٣٥٦١)، وأحمد (١٠٩٦١)، وابن أبي شيبة (١٧٨٤٥).

لقد ذهب إليهم رسول الله ﷺ في العام العاشر من البعثة، بعد وفاة أبي طالب، ذهب ﷺ يدعوهم إلى الإسلام، ويستثير فيهم شهامة العرب ونجدة الشرفاء، فبماذا استقبلوه؟!

لقد استقبلوه بما لم يتخيَّله ﷺ من السخرية والاستهزاء!

ولقد تحدث سادتهم معه بدرجة من السفاهة والحماقة، يندُر أن تُوجد في سادة قوم..

قال له عبد ياليل بن عمرو: إنه سيمرط[1] ثياب الكعبة إن كان الله أرسله!!

وقال مسعود: أمَا وجد الله أحدًا غيرك؟!

وقال حبيب: والله لا أكلمك أبدًا، إن كنت رسولاً لأَنْتَ أعظم خطرًا من أن أردَّ عليك الكلام، ولئن كُنْتَ تَكْذِبُ على الله ما ينبغي أن أكلمك[2]!!

ومع ذلك مكث رسول الله ﷺ عشرة أيام[3] يدعو في الطائف، فما ترك أحدًا إلا كلَّمه في الإسلام، ورغم ذلك فقد اجتمعت المدينة بكاملها على تكذيبه، ثم قالوا له في اليوم العاشر: اخرج من بلادنا!!

وقد أغرَوْا به سفهاءهم وغِلْمَانَهُمْ، فَصَفُّوا أَنْفُسَهُمْ صفين خارج

---

(١) سيمرط: سيقطع.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٢٦٧.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٢١٢.

الطائف، وأرغموه ﷺ وصاحبه زيدًا على المرور بين الصفين، وجعلوا يقذفونهما بالحجارة، حتى سالت الدماء من قدميه الشريفتين، وشُجَّتْ رأسُ زيد بن حارثة[١] رضي الله عنه!!

وانطلق الرسول ﷺ ومعه زيد رضي الله عنه يعدوان بعيدًا عن المدينة، والسفهاء وراءهما بالسباب والحجارة، حتى أرغموهما على دخول حائط[٢] لعتبة وشيبة ابني ربيعة، حيث دعا رسول الله ﷺ بالدعاء المشهور الذي يفيض ألمًا وحزنًا فقال:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إِلَى قَرِيبٍ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ تَكُنْ غَضْبَانَ عَلَيَّ فَلا أُبَالِي، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِوَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ أَنْ يَنْزِلَ بِي غَضَبُكَ، أَوْ يَحُلَّ بِي سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِالله»[٣].

---

(١) هو زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، مولى رسول الله ﷺ أول من أسلم من الموالي، تزوج السيدة زينب بنت جحش ثم طلّقها، ثم تزوج بأم أيمن. من أولاده أسامة بن زيد. وقد استُشهد بمؤتة من أرض الشام سنة ثمان من الهجرة، وكان أميرًا على الجيش. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/ ١١٤، وابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ١٤٠، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٢٨٨٥).

(٢) حديقة.

(٣) قال الهيثمي في المجمع (٦/ ٣٥): رواه الطبراني، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات، وأخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٨٣٩).

ثم ينطلق رسول الله ﷺ إلى مكة وهو لا يدري كيف سيدخلها، وقد فعل قومها معه ما فعلوه. ويصوِّر لنا رسولُ الله ﷺ حاله ونفسيَّته فيقول: «فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ»[١].

إنه ينطلق ولا يكاد يرى شيئًا أمامه من الحُزن، بل إنه في شبه إغماءة، إذ يقول: «فَلَمْ أَسْتَفِقْ إلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ»!! وقرن الثعالب تبعد عن الطائف حوالي خمسة وثلاثين كيلو مترًا..!!

إنها أشد المواقف صعوبةً على نفسه ﷺ مطلقًا..!!

في هذا الموقف العصيب يقول ﷺ: «فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ. فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ». فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[٢]!!

وهذا أيضًا من أعجب مواقف التاريخ!!

إن الله ﷻ أرسل جبريل عليه السلام ومعه ملك الجبال؛ ليأتمر بأمر رسول الله

---

(١) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى (٣٠٥٩)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٥). وقرن الثعالب: هو قرن المنازل، وهو ميقات أهل نجد، وهو على مرحلتين من مكة، وأصل القرن كل جبل صغير ينقطع من جبل كبير.

(٢) نفس التخريج السابق، واللفظ هنا لمسلم.

ﷺ. وليدعوه صراحةً إلى الموافقة على إهلاك القوم، وفي إرسال ملك الجبال نفسه إشارة واضحة إلى أن الله ﷻ لن يعتب على رسوله إذا طلب إهلاك القوم، ومع ذلك فهلاك الناس على الشرك لا يَسُرُّ رسول الله ﷺ!!

إن له مهمَّة أصيلة واضحة ﷺ وهي استنقاذ الناس من الجحيم، والناس لا تدري، وتتجه إلى هاويتها مُسرِعة، والرسول ﷺ أشدُّ حرصًا عليهم من أنفسهم، فيتمالك أعصابه سريعًا، ويأخذ قراره دون تردُّد: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا».

هل تملك أمة من الأمم هذا التاريخ؟!

هل يعرف المسلمون الثروات الهائلة الكامنة بين بطون الصفحات، والتي شَرَحَتْ بالتفصيل كلَّ لحظة من لحظات حياة سيِّد البشر رسول الله ﷺ..؟!

وتمرُّ الأيام، وتظلُّ ثقيف على كفرها.. لقد قاومت كثيرًا، وصدَّتْ عن سبيل الله كثيرًا، واشتركت مع هوازن في الحرب ضد رسول الله ﷺ في موقعة حنين، وانتهت الموقعة بهزيمتهم وفرارهم إلى مدينتهم الطائف، وذهب إليها رسول الله ﷺ وحاصرها حصارًا شديدًا مُدَّةَ شهر كامل، لكنه لم يتمكَّن من فتحها؛ لمناعة حصونها وقوة مقاتليها، فقرَّر بواقعيَّة أن ينسحب ويتركها، وحزن الصحابة لذلك، وقالوا: يا رسول الله، أحرقتْنا نبال ثقيف، فادع الله عليهم. قال: «اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا»[1]!!

---

(١) الترمذي (٣٩٤٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وأحمد (١٤٧٤٣)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده قوي على شرط مسلم.

بعد كل هذه المعاناة والتعب يكون ردُّ فعله ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا»!!

نعم.. اللهم اهدِ ثقيفًا، واهدِ كل البشر.

إن من فَقِهَ منهجَ حياته ﷺ وعَلِمَ الأهدافَ السامية التي عاش من أجلها، وأدرك عظمة أخلاقه، ونُبل صفاته، وصفاء سريرته، ونقاء قلبه.. من علم كل ذلك فلن يستغرب أفعاله، ولن يتعجب من مواقفه ﷺ.

لقد أدرك قِصَرَ الحياةِ وسُرْعَتَهَا، وعلم قيمة الجنة وعظمتها، وفَقِهَ عذاب النار وقسوته، فوهب حياته بكاملها لهداية البشر أجمعين، وما رأى حقًّا لنفسه؛ فما فكَّر قَطُّ في ثأرٍ لذاته، أو انتقام لكيانه..!!

نسأل الله ﷻ أن يحشرنا في زمرته ﷺ، وأن يجمعنا تحت لوائه.

وفي الفصل القادم صورٌ أعجب وأغرب.. وسبحان مَن وصف الفضل الذي أعطاه لرسوله ﷺ بقوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]..





الفصل السادس:

الرسول ﷺ والبرُّ مع زعماء الأعداء



في الفصل السابق مر بنا كيف تعامل رسول الله ﷺ بالبر مع غير المسلمين، فذكرنا إحسانه وكرمه في تعامله معهم بكل طوائفهم، بل ذكرنا كيف تعامل بالبر مع المدن والشعوب التي آذته كثيرًا، كأهل مكة وأهل الطائف، وهو ما يكاد أن يكون نادرًا تمامًا في تاريخ أيِّ أمة من أمم الأرض.

وإذا كانت الصور السابقة من صور التعامل نادرة، فإن الصورة التي سنتناولها في هذا المبحث تكاد تكون مستحيلة!!

إننا سنتناول في هذا الفصل بِرَّهُ ﷺ مع زعماء الأعداء الذين قاوموه وحاربوه سنواتٍ عديدة.. سنتناول بِرَّهُ مع أولئك الذي جَيَّشُوا الجيوش، وحَزَّبُوا الأحزاب؛ لاستئصال شأفة المسلمين..

سنتناول بِرَّهُ مع أولئك الذين لم يكتفوا بالسخرية منه والكيد له، بل حفَّزوا الآخرين على فعل ذلك، وكانوا في فترة من فترات حياتهم أكابر المجرمين، وقادة الضالين.

بل إننا سنتناول بره مع أولئك الذين دبَّروا المحاولات تلو المحاولات لقتله هو شخصيًّا، فما ترك ذلك في قلبه حقدًا، وما أورث غِلاًّ، وما غيَّر من أخلاقه المعهودة، ولا من طبيعته الرقيقة ﷺ.

وسينقسم هذا الفصل إلى المبحثين التاليين:

المبحث الأول: بِرُّهُ ﷺ مع زعماء مكة

المبحث الثاني: برُّه ﷺ مع زعماء القبائل الأخرى

المبحث الأول

بِرُّه ﷺ مع زعماء مكة

سنقف في هذا المبحث أمام برِّه ﷺ مع أبرز زعماء مكة الذين ناصَبُوهُ ﷺ عداءً مريرًا طويلاً، وذلك من خلال ما يلي:

برُّه ﷺ مع أبي سفيان:

لم يكن أبو سفيان رجلاً عاديًّا من رجال قريش، لكنه كان من الرجال المعدودين الذين يُشار إليهم بالحكمة وحسن القيادة، ولم يكن رجلاً محايدًا عندما ظهرت دعوة رسول الله ﷺ، إنما كان مهاجمًا لها، محاولاً بكل الطرق أن يُوقِفَ مَدَّها، وأن يُجهِض نموها.

لقد كان أبو سفيان من الذين اجتهدوا طيلة فترة الدعوة في مكة أن يقتلوا الإسلام في مهده، وقد ذكره الطبري فيمن اجتمعوا في دار الندوة يخططون لقتل رسول الله ﷺ قبيل هجرته إلى المدينة المنورة[1].

وفي فترة المدينة المنورة كان أبو سفيان على رأس المشركين في أول

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ١/ ٥٦٦.

مواجهة بين سريةٍ مُسلمةٍ[(١)] بقيادة عبيدة بن الحارث[(٢)] ﷺ، وتجمُّعٍ للمشركين عند منطقة ثنية المُرَّة[(٣)]، وكان أبو سفيان على رأس القافلة التي نجتْ، وأعقبها مباشرة الصدام الكبير مع المشركين في بدر.

وفي بدر قُتل سبعون من صناديد وقادة قريش، ومن ثَمَّ اجتمعت قريش على رئاسة أبي سفيان لها بكل بطونها وفروعها، وهو حدث فريد في تاريخ مكة، ومن هذه اللحظة وأبو سفيان هو المحرِّك الأول لجموع قريش والقبائل العربية الأخرى لحرب المسلمين.

وكان ابنه «حنظلة» قد قُتِلَ في بدر، وابنه الآخر «عمرو» قد أُسِر[(٤)]، فزاد ذلك في أضغانه وأحقاده، واستطاع أبو سفيان -بنفسه- أن يأسِر صحابيًّا جليلاً وهو سعد بن النعمان بن أكال، فبادله بابنه عمرو بن أبي سفيان.

ثم أقسم أبو سفيان ألا يَمَسَّ رأسَه ماءٌ من جنابة حتى يغزو محمدًا

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ١٣٦. يذكر ابن إسحاق أن هذه كانت أول سرية مسلمة، بينما يذكر آخرون أن أول سرية كانت لحمزة بن عبد المطلب.

(٢) عبيدة بن الحارث: هو عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف القرشي، كان أَسَنَّ من رسول الله ﷺ بعشر سنين، وكان إسلامه قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، وكانت هجرته إلى المدينة مع أخويه، وكان له قدْر ومنزلة عند رسول الله ﷺ. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ١٤١، وابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ٤٤٨، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٥٣٧٩).

(٣) ثنية المُرَّة: بتشديد الراء أو بتخفيفها، موضع معروف بين غدير خم والفرع على طريق الهجرة. انظر: محمد حسن شُرَّاب: المعالم الأثيرة في السنة والسيرة ص٢٥٠.

(٤) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٤٣٢.

ﷺ، وبالفعل جمع مائتي فارس وغزا المدينة في الظلام، وقتل رجلين من الأنصار[1]، فيما عُرِف في التاريخ بغزوة السويق[2].

ثم كان يوم «أُحُد»، وخرج أبو سفيان يقود ثلاثة آلاف مشرك لحرب المسلمين، وكانت من أكبر الأزمات التي مرت بالمسلمين؛ فبعد الانتصار في أول المعركة تحوَّل النصر إلى مصيبة، وصارت الدولة للمشركين، واستشهد من المسلمين سبعون، وقَتَل أبو سفيان يومها[3] سلمةَ بن ثابت[4] ﵁، وقيل: إنه هو الذي قَتَل حنظلة غَسِيل الملائكة[5] وقال: حنظلة بحنظلة، أي أن هذا الصحابي بابنه الذي قُتِلَ في بدر[6].

لكن أشدَّ ذلك ما ظهر منه في شعورٍ بالشماتة، وما بدا منه من مخالفةٍ لأعراف الحرب، وآداب القتال عند العرب.. وذلك في الحوار الذي دار

---

(١) الرجلان هما: معبد بن عمرو وحليف له لم أقف على اسمه، وذكر ابن إسحاق القصة إلا أنه لم يسمِّهما.

(٢) ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٥٤٠.

(٣) ابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٤٦٦.

(٤) سلمة بن ثابت: هو سلمة بن ثابت بن وقش الأنصاري الأشهلي، شهد بدرًا وقتل يوم أحد شهيدًا هو وأخوه عمرو بن ثابت، قتله أبو سفيان بن حرب. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/ ٢٠٠، وابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ٢٩١، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٣٣٦٢).

(٥) هو حنظلة بن أبي عامر، وقد خرج إلى الغزوة صبيحة عُرسه، وكان جنبًا، فأعجله الخروج عن الغُسل، فغسَّلته الملائكة! وقيل: قتله شداد بن الأسود بن شعوب الليثي وليس أبا سفيان. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ١/ ٤٣٢، وابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٦٢١، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (١٨٥٨).

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٦٨.

بينه وبين المسلمين بعد غزوة أحد مباشرة..

يروي البخاري وغيره أن أبا سفيان نادى بعد انتهاء المعركة يوم أُحُد: «أفي القوم محمد؟! ثلاث مرات، فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟! ثلاث مرات، ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟! ثلاث مرات، ثم رجع إلى أصحابه فقال: أمَّا هؤلاء فقد قُتِلوا. فما ملك عمر نفسه فقال: كذبت -والله- يا عدو الله! إن الذين عددت أحياء كلَّهم، وقد بَقِيَ لك ما يسوءُك.

قال: يومٌ بيومِ بدر، والحرب سجال، إنكم ستجدون في القوم مُثلة لم آمر بها، ولم تسُؤنِي، ثم أخذ يرتجز: أُعْلُ هُبَلْ..!! أُعْلُ هُبَلْ..!!

قال النبي ﷺ : «أَلاَ تُجِيبُونَهُ؟!» قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ».

قال: إن لنا العزى ولا عزى لكم!!

فقال النبي ﷺ: «أَلاَ تُجِيبُونَهُ؟!» قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «قُولُوا: اللهُ مَوْلاَنَا وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ»[1].

ففي هذا الحوار يُظهِر أبو سفيان الرضا بما حدث في الشهداء من تشويهٍ للأجساد، وتقطيعٍ للآذان، وبقرٍ للبطون! وهو ما لم تألفه العرب أصلاً في جاهلية ولا في إسلام، وإنما يدل كل ذلك على شهوة إبادة حقيقية،

---

(١) البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة أحد (٣٨١٧)، وأبو داود (٢٦٦٢)، والنسائي (٨٦٣٥).

وعلى رغبةٍ أكيدةٍ في الكيد لرسول الله ﷺ وللمسلمين.

وظهرت هذه الشهوة أيضًا عندما حضر أبو سفيان وشهد حادثة قتل زيد ابن الدثنة[1] رضي الله عنه، في إقرارٍ واضحٍ لمبدأ الغدر في التعامل مع المسلمين[2].

وقد ظهرت هذه الشهوة بصورة أكبر في حصار الأحزاب في العام الخامس من الهجرة، وفي هذا الحصار حرص أبو سفيان -الذي كان على قيادة عشرة آلاف مشرك- والمشركون معه على التخلُّص من كلِّ المسلمين بالمدينة المنورة..

لقد كانت جريمة كبرى عندما جمعوا الجموع؛ ليحاصروا المدينة الآمنة، ولِيُرَوِّعُوا الرجال والنساء والأطفال!!

وظلَّ أبو سفيان زعيمًا لمكة حتى السنة الثامنة من الهجرة، وكان صلح الحديبية قد تمَّ منذ سنتين، وانضمت فيه قبيلة بني بكر لحلف المشركين، بينما انضمت قبيلة خزاعة لحلف المسلمين، ثم حدثت الخيانة المعروفة من بني بكر، وقتلت عددًا من قبيلة خزاعة، وساعدتها قريش على ذلك[3]، فنُقِضَ بذلك صلح الحديبية.. ومن ثَمَّ قرر رسول الله ﷺ فتح مكة بجيش

---

(١) زيد ابن االدثنة: هو زيد ابن الدثنة بن بياضة الأنصاري البياضي، شهد بدرًا وأُحدًا، وأُسر يوم الرجيع مع خُبيب بن عدي، فبيع بمكة لصفوان بن أمية فقتله، وذلك في سنة أربع من الهجرة. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/ ١٢٢، وابن الأثير: أسد الغابة ٢١/ ١٤٧، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٢٩٠٠).

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٧٩.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٥٤.

قوامه عشرة آلاف مؤمن.

إنها قصة طويلة، وتفصيلاتها كثيرة، وما يهمنا فيها أن أبا سفيان كان يتولَّى كِبْر الأمر في حرب المسلمين، وكان على رأس المهدِّدين لأمن الدولة الإسلامية.

ضعْ كل هذه الخلفيات المعقَّدة في ذهنك، وأنت تحلِّل الطريقة التي تعامل بها رسول الله ﷺ مع أبي سفيان عندما قابله في الطريق من المدينة إلى مكَّة أثناء التوجه لفتح مكة المكرمة.

إننا ذكرنا هذا التاريخ الطويل من العداء لنفقه قيمة الخُلُق النبوي، وعظمة الرؤية الإسلامية للأمور..

لقد دارت الأيام، وأصبح أبو سفيان في موقف ضعيف جدًّا، ووجد نفسه عاجزًا عن الحركة، بل عن التفكير، وذلك عندما بُوغِتَ بالجيوش الإسلامية على بعد عدة كيلو مترات من مكة، وعلم أبو سفيان -يقينًا- أنه على رأس قائمة المطلوبين!!

فقد كان حريصًا في أكثر من مرة على استهداف المسلمين، ورسولهم ﷺ وأصابت أبا سفيان حالة من الرعب والهلع، ووجد أمامه أحد أصدقائه القدامى الذين آمنوا وانضموا إلى الصف المسلم وهو العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، عم رسول الله ﷺ، فاستغاثه واستنجد به قائلاً: ما الحيلة؟ فداك أبي وأمي!

ونترك عبد الله بن عباس رضي الله عنه يروي لنا ذلك الموقف حكاية عن أبيه،

وما حدث بعد ذلك بين رسول الله ﷺ وأبي سفيان زعيم مكة:

قال العباس ﷺ يخاطب أبا سفيان: والله لئن ظَفِرَ بك لَيَضْرِبَنَّ عُنُقَكَ..!!

وهذا هو التصرف الطبيعي في تصور العباس ﷺ، وفي تصور أي مُطَّلِعٍ أو محللٍ يراجع تاريخ أبي سفيان مع المسلمين.

ولكن العباس ﷺ لصداقته القديمة مع أبي سفيان أو لرغبته الأكيدة في حفظ دماء قريش، قرَّر أن يشفع لأبي سفيان عند رسول الله ﷺ، فقال ﷺ لأبي سفيان: «اركب معي هذه البغلة؛ حتى آتي بك رسول الله ﷺ أستأمنه لك». فركب أبو سفيان مع العباس ﷺ..

يقول العباس: فخرجت به، فكلما مررتُ بنار من نيران المسلمين فقالوا: ما هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ عليها عمه قالوا: هذه بغلة رسول الله ﷺ عليها عمه، حتى مررنا بنار عمر بن الخطاب، فقال: من هذا؟ وقام إليَّ، فلما رآه على عجز البغلة عرفه، فقال: والله عدوُّ الله!! الحمد لله الذي أمكن منك. فخرج يشتد نحو رسول الله ﷺ ودخل، وركضت البغلة فسبقته بقدر ما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء، فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عمر فقال: هذا عدو الله أبو سفيان، قد أمكن الله منه في غير عهد ولا عقد؛ فدعني أضرب عنقه!!

فقلتُ (أي العباس): قد أجرته يا رسول الله. ثم جلستُ إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، فقلت: والله لا يناجيه الليلة رجل دوني. فلما أكثر عمر

قلتُ: مهلاً يا عمر! فوالله لو كان رجلاً من بني عديٍّ ما قلتَ هـذا، ولكنه من بني عبد مناف.

فقال: مهلاً يا عباس، لا تقل هذا؛ فوالله لإسلامك حين أسلمت كان أحبَّ إليَّ من إسلام الخطاب أبي لو أسلم؛ وذلك أني قد عرفت أن إسلامك كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب. فقال رسول الله ﷺ: «اذْهَبْ بِهِ يَا عَبَّاسُ إِلَى رَحْلِكَ، فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَأْتِنِي بِهِ».

فذهبت به إلى الرحل فبات عندي، فلما أصبحت غدوت به، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ! أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ؟!».

قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك، وأعظم عفوك!! لقد كاد أن يقع في نفسي أن لو كان إله غيره لقد أغنى شيئًا بعدُ.

فقال: «وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ! أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ؟!».

قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك، وأكرمك، وأوصلك، وأعظم عفوك! أما هذا -والله- فكان في النفس منها حتى الآن شيء.

قال العباس: فقلت: ويحك! أسلمْ واشهدْ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن تُضرب عنقك.

قال: فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

قال العباس: فقلتُ: يا رسول الله، إن أبا سفيان يحب الفخر، فاجعل له شيئًا.

فقال: «نَعَمْ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ».

فلما انصرف إلى مكة ليُخْبِرَهُمْ، قال رسول الله ﷺ: «احْبِسْهُ بِمَضِيقِ الْوَادِي عِنْدَ حَطْمِ الْخَيْلِ [١]؛ حَتَّى تَمُرَّ بِهِ جُنُودُ اللهِ».

فحبسه العباس حيث أمره رسول الله ﷺ، فمرت القبائل على ركابها، فكلما مرت قبيلة، قال: من هذه؟ فأقول: بنو سليم، فيقول: ما لي ولبني سليم؟! ثم تمُرُّ أخرى، فيقول: ما هؤلاء؟ فأقول: مُزينة، فيقول: ما لي ولمزينة؟!

فلم يزل يقول ذلك حتى مرَّت كتيبة رسول الله ﷺ الخضراء [٢] فيها المهاجرون والأنصار، لا يُرى منهم إلا الحَدَق [٣]، قال: من هؤلاء؟ فقلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحدٍ بهؤلاء قِبَل [٤]!! والله لقد أصبح مُلك ابن أخيك اليوم عظيمًا!!

فقلت: يا أبا سفيان، إنها النبوة. قال: فنَعَمْ إذًا. فقلت: النَّجَاء إلى قومك!

فخرج حتى أتاهم بمكة، فجعل يصيح بأعلى صوته: يا معشر قريش،

---

(١) حطم الخيل: أي ازدحامها. وفي رواية: خطم الجبل: أي أنفه.
(٢) الكتيبة الخضراء: ما غلب عليها لبس الحديد، وشُبِّهَ سوادُه بالخُضرة. والعرب تُطلق الخضرة على السواد.
(٣) العيون.
(٤) قِبَل: طاقة ومقدرة.

هذا محمد قد أتاكم بما لا قِبَل لكم به! فقامت امرأته هند بنت عتبة، وأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الدسم الأحمس[(١)]؛ فبئس طليعة قوم!

فقال أبو سفيان: ويحكم!! لا تَغُرَّنَّكُمْ هذه من أنفسكم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

فقالوا: ويحك! ما تغني عنا دارك؟

قال: ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرق الناس إلى دورهم، وإلى المسجد»[(٢)].

لقد ضرب لنا رسول الله ﷺ في هذا الموقف مثلاً من أروع أمثلة المروءة والشهامة، وكذلك من أروع أمثلة التجرُّد لله والحرص على الدعوة.

لقد وقف ﷺ يتحاور مع أبي سفيان بطريقة إقناعية فيها البحث عن الحجة والدليل، مع أن السيف كان الحَلّ الأمثل عند عامة القواد والزعماء.

وقد أجاب أبو سفيان إجابة غير شافية لا تدل عن قناعة كاملة بتوحيد الله، ولكنه على كل حال لم يرفض، لكن عندما سأله رسول الله ﷺ عن إيمانه بنبوُّته صرَّح أبو سفيان أنه ما زال يشك في هذا الأمر!!

---

(١) الدسم الأحمس: الأسود الدنيء.

(٢) رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٢٤٢، وانظر المطالب العالية (٤٣٦٢)، وقال ابن حجر: هذا حديث صحيح. وأخرجه البخاري من مرسل عروة في المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح (٤٠٣٠)، وابن سعد في الطبقات ٢/ ١٣٤، ١٣٥، والبيهقي في الدلائل ٥/ ٣٣-٣٥، وفيه مراجعة أبي سفيان لبديل بن ورقاء في كثرة النيران، والقبض على أبي سفيان، وورود الكتائب عليه. وانظر: ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٣٩٩-٤٠٥.

وهنا هدَّده العباس ﷺ بأن قتله أصبح وشيكًا، ولا يحفظ دمه إلا الإسلام، فأسلم عندئذ أبو سفيان.

إن الذي فعله العباس ﷺ ليس إكراهًا في الدين، بل هو رحمة بأبي سفيان، ورحمة بكل قريش، إن قتل أبي سفيان في هذا الموقف لا يستنكره أحد، ولا ترفضه أعراف الدول لا في القديم ولا في الحديث؛ فهو يُصَنَّفُ في القانون الدولي الحديث على أنه مجرم حرب؛ لأنه دبَّر منذ سنتين محاولة «قتل جماعي» لأهل المدينة المنورة، ونَقَضَ منذ أيامٍ قليلةٍ عهدًا بينه وبين المسلمين راحَ ضحيَّة نقْضِهِ عددٌ من الرجال والنساء قتلى.

بل إن الذي يمكن أن يتوقعه أي متابع للأحداث أن يرفض رسول الله ﷺ إسلام أبي سفيان في هذا الموقف، ويظنَّ -ظنًّا أشبه باليقين- أنه ما فعل ذلك إلا تَقِيَّةً، وخوفًا من القتل.

لكن الرسول ﷺ لم يُظهِر شكًّا في إيمان أبي سفيان، بل قَبِل منه ببساطة، ولم يناقشه أو يستوثق منه، بل عفا عنه في لحظة واحدة!!

لقد تناسى رسول الله ﷺ في لحظة واحدة كل الذكريات المؤلمة، والجراح العميقة؛ فقلبه ﷺ لا تغزوه الأحقاد، ولا سبيل للشيطان عليه.

ولو انتهت القصة عند هذا الحدِّ لكانت آية من آيات العفو والتسامح، لكن الذي حدث بعد ذلك يتسامى ويرتفع فوق درجة الأخلاق التي نعرفها، فلا يمكن أن يُفَسَّرَ إلا بأنه ﷺ نبيٌّ كريم..

لقد أعطى رسول الله ﷺ لأبي سفيان في هذا الموقف ما يكفل له الفخر

أبد الدهر!! إنه ﷺ لم يكتفِ بإعطاء الأمان لأبي سفيان، بل أعطى الأمان لكل من يدخل دار أبي سفيان!

«مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ»!

أيُّ عظمة..!! وأيُّ فضل..!!

إننا لا يمكن أن نتصور مدى النُّبل الذي في هذا الموقف إلا أن نضع أنفسنا في الموقف ذاته، ولنكن صادقين مع أنفسنا، وليكن العالم صادقًا مع نفسه.. هل يفعل ذلك أحد غير رسول الله ﷺ؟!

أما زال هناك من يدَّعِي أن المسلمين لا يعترفون بغيرهم، ولا يحسنون التعامل معهم؟!!

أما زال الإسلام دين إرهاب وعنف في رأي البعض؟!

إننا نفتقر فقط إلى العلم.. إننا لا نعرف من حياة رسول الله ﷺ إلا قشورًا سطحية، ولو تعمَّقنا في دراسة سيرته، ونقلناها لعموم أهل الأرض، لزالت الغشاوة عن أبصار قوم لا يعلمون.

وما حدث مع أبي سفيان رضي الله عنه ليس موقفًا فرديًّا في السيرة، بل رأيناه مع كثيرٍ من محرِّكي الجموع، ومهيِّجي الشعوب..

وموقفه ﷺ مع عكرمة بن أبي جهل موقفٌ لا يُنْسَى أيضًا.

برُّه ﷺ مع عكرمة بن أبي جهل:

كان عكرمة من أشد أعداء رسول الله ﷺ ضراوةً في تاريخ السيرة

كلها، وقد شرب العداوة جُلَّ هذه المدة الطويلة من أبيه فرعون هذه الأمة وألدِّ أعداء الإسلام «أبي جهل»، ولكن عكرمة استمر وزاد في العداوة للدرجة التي جعلت الرسول ﷺ يُريق دمه عند فتح مكة باعتباره من مجرمي الحرب آنذاك.

كان عكرمة من القليل الذي قاتل في الخندمة[1] ضد خالد بن الوليد ﷺ، ولكنه بعد هزيمته فرَّ من مكة المكرمة وحاول أن يصل في فراره إلى اليمن، وذهب بالفعل إلى البحر ليأخذ سفينة وينطلق بها إلى اليمن[2].

إن طريقه في الكفر طويل، وهو مطلوب الدم، وإذا وجده الرسول ﷺ سيقتله بلا جدال.

وقد أرادت زوجة عكرمة «أم حكيم بنت الحارث بن هشام»[3] أن تنقذ زوجها، فذهبت -بعد أن أسلمت- إلى الرسول ﷺ لتشفع عنده لعكرمة بن أبي جهل في أن يعود إلى مكة المكرمة آمنًا، وقالت: «قد هرب عكرمة منك إلى اليمن، وخاف أن تقتله فأَمِّنْهُ».

فردَّ الرسول ﷺ في يسر وسهولة: « هُوَ آمِنٌ»[4]!!

---

(١) الخندمة: اسم موضع بناحية مكة، قال ابن الأَثير: هو جبل معروف عند مكة. وقال ابن بري: كانت به وقعة يوم فتح مكة. انظر: الفيروزآبادي: القاموس المحيط ص١٤٢٧، وابن الأثير: النهاية في غريب الأثر ٢/ ١٦١.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٦٠.

(٣) هي أم حكيم بنت الحارث بن هشام، ابنة عم عكرمة، أسلمت يوم الفتح، واستأمنت النبيَّ ﷺ لزوجها عكرمة، وخرجت في طلبه فردته حتى أسلم وثبتا على نكاحهما. انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٦/ ٣٢٩، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (١١٩٧٣).

(٤) رواه مالك في الموطأ برواية محمد بن الحسن الشيباني (٦٠١).

لم يذكر لها ﷺ أنه مهدر الدم، ولم يذكِّرْها بتاريخه الطويل، ولم يقُلْ لها: أنتِ حديثة الإسلام جدًّا، فكيف تشفعين لغيرك؟!

لم يقل لها أيًّا من ذلك، ولم يشترط عليه أو عليها شروطًا، وإنما قال: «هُوَ آمِنٌ»!

وخرجت أم حكيم الزوجة الوفية تبحث عن زوجها، وذهبت حتى وصلت في رحلة طويلة إلى عكرمة وهو يحاول أن يركب سفينة في ساحل البحر الأحمر متجهًا إلى اليمن، فقالت له: «يا ابن عم، قد جئتك من عند أَوْصَلِ الناس، وأبرِّ الناس، وخيرِ الناس.. لا تُهلِك نفسك، إني استأمنت لك محمدًا ﷺ».

فقال لها: أنتِ فعلتِ هذا؟!

قالت: نعم[١].

وعكرمة بن أبي جهل في ذلك الوقت يرى الدنيا كلها قد ضُيِّقَتْ عليه، فأين يذهب؟ إنه يريد أن يذهب الآن إلى اليمن، واليمن بكاملها مسلمة، وبقاع الأرض تتناقص من حوله، والجميع الآن يدخلون في دين محمد ﷺ وحِلفه، فأخذ عكرمة قرارًا سريعًا بالعودة معها دون تفكير طويل.

وعاد عكرمة بن أبي جهل إلى مكة المكرمة، وقبل أن يدخلها إذا

---

(١) انظر: الحاكم: المستدرك ٣/ ٢٦٩.

برسول الله ﷺ يقول لأصحابه كلمات جميلة..

قال: «يَأْتِيكُمْ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ مُؤْمِنًا مُهَاجِرًا، فَلا تَسُبُّوا أَبَاهُ، فَإِنَّ سَبَّ الْمَيِّتِ يُؤْذِي الْحَيَّ، وَلا يَبْلُغُ الْمَيِّتَ»[1].

فأيُّ أخلاق كريمة كانت عند رسول الله ﷺ هذه؟!!

لقد كان أبو جهل فرعون هذه الأمة، ومع ذلك فالرسول ﷺ يأمر الصحابة ﷺ بألاَّ يلعنوا أبا جهل أمام ابنه عكرمة؛ لكي لا يؤذوا مشاعره، مع أن عكرمة لم يُسلِم حتى هذه اللحظة.

ودخل عكرمة بن أبي جهل إلى مكة المكرمة، ومن بعيد رآه الرسول ﷺ فماذا فعل..؟!

هل تذكَّرَ أبا جهل؟!

هل استعاد بذاكرته الغزوات التي شارك فيها عكرمة صادًّا عن سبيل الله؟!

هل فكر في قتال عكرمة للمسلمين منذ أيام عند الخندمة؟!

هل نظر إلى حالة الضعف والهوان الشديد التي جاء بها عكرمة، فأراد أن يُلَقِّنَهُ درسًا يعرف به قوة الدولة الإسلامية؟!

إنه ﷺ لم يفعل أيًّا من هذا الذي يتوقعه أي سياسي!!

---

(١) رواه مالك في الموطأ برواية محمد بن الحسن (٦٠١)، والحاكم في المستدرك ٣/ ٢٦٩، وضعفه الذهبي.

لقد وثب رسول الله ﷺ إلى عكرمة وما عليه رداء فرحًا به[(١)]، وانبسطت أساريره وهو يرى عكرمة بن أبي جهل يعود إليه، مع أنه لم يسلم بعدُ، لكن هذه هي طبيعة رسول الله ﷺ دون تكلُّف..

وجلس عكرمة بين يدي رسول الله ﷺ، وقال: يا محمد، إن هذه (وأشار إلى زوجته) أخبرتني بأنك أمَّنتني..!!

فقال الرسول ﷺ دون تفصيلات ولا شروط: «صَدَقَتْ، فَأَنْتَ آمِنٌ».

فقال عكرمة: إلامَ تدعو يا محمد؟

فقال له: «أَدْعُوكَ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ الله، وَأَنْ تُقِيمَ الصَّلاةَ، وَأَنْ تُؤْتِيَ الزَّكَاةَ» وتفعل، وتفعل... وأخذ يعدِّد عليه أمور الإسلام، حتى عدَّدَ له كل الخصال الحميدة.

فقال عكرمة: ما دعوتَ إلا إلى الحق وأمر حسن جميل!!

والقلوب بين أصابع الرحمن يقلِّبُهَا كيف يشاء، ففي هذه اللحظات فقط شعر عكرمة بن أبي جهل ﷺ أن كل ما ذكره النبي ﷺ كان حقًّا، وأن كل ما تحدَّثَ عنه قبل ذلك أيام مكة وبعد مكة كان صدقًا، وكان من كلام النبوة والوحي..!!

وهنا قال عكرمة بن أبي جهل: قد كنتَ -والله- فينا تدعو إلى ما دعوت إليه، وأنت أصدقُنا حديثًا، وأَبَرُّنَا بِرًّا، فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله.

---

(١) الحاكم: المستدرك ٣/ ٢٦٩.

وفي لحظة واحدة انتقل عكرمة من معسكر الكفر إلى معسكر الإيمان!!

ثم قال عكرمة: يا رسول الله، علمني خير شيء.

فقال الرسول ﷺ «تَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ».

فقال عكرمة: ثم ماذا؟

قال: «أَنْ تَقُولَ: أُشْهِدُ اللهَ، وَأُشْهِدُ مَنْ حَضَرَ أَنِّي مُسْلِمٌ وَمُهَاجِرٌ وَمُجَاهِدٌ».

فقال عكرمة هذه الكلمات..

فقال الرسول ﷺ وهو يعرف أن عكرمة ما زال حديث عهد بالإسلام، ويحاول قدر المستطاع أن يقرِّبه إلى الدين: «لا تَسْأَلُنِي الْيَوْمَ شَيْئًا أُعْطِيهِ أَحَدًا إِلاَّ أَعْطَيْتُهُ لَكَ».

فلم يطلب عكرمة بن أبي جهل مالاً، أو سلطانًا، أو إمارة، وإنما طلب المغفرة فقال: فإني أسألك أن تستغفر لي كل عداوة عاديتُكَهَا، أو مسيرٍ أوضعت فيه، أو مقام لقيتك فيه، أو كلام قلته في وجهك، أو أنت غائب عنه.

فقال ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ كُلَّ عَدَاوَةٍ عَادَانِيهَا، وَكُلَّ مَسِيرٍ سَارَ فِيهِ إِلَى مَوْضِعٍ يُرِيدُ فِي هَذَا الْمَسِيرِ إِطْفَاءَ نُورِكَ، فَاغْفِرْ لَهُ مَا نَالَ مِنِّي مِنْ عِرْضٍ فِي وَجْهِي، أَوْ وَأَنَا غَائِبٌ عَنْهُ».

فقال عكرمة: رضيتُ يا رسول الله.

ثم قال صادقًا: لا أدع نفقةً كنت أنفقها في صدٍّ عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالاً كنت أقاتل في صدٍّ عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله[١].

ووهب عكرمة حياته للجهاد في سبيل الله، سواءٌ في حروب الردة أو في فتوح الشام، حتى قُتِلَ شهيدًا رضي الله عنه في اليرموك.

ولننظر كيف بدَّل الله عز وجل حياته كاملة بحسن استقبال الرسول ﷺ له، وبتأمينه إياه، وبغفرانه له كل التاريخ الأسود الذي كان له مع المسلمين، وصدق رسول الله ﷺ القائل: «لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»[٢]. وفي رواية: «خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»[٣].

وكما فعل رسول الله ﷺ مع أبي سفيان وعكرمة رضي الله عنهما فعل مع كثيرٍ غيرهما، وكان موقفه مع صفوان بن أمية من أروع مواقف التاريخ قاطبة.

برُّه ﷺ مع صفوان بن أمية:

لم يكن صفوان بن أميَّة بن خلف يختلف كثيرًا عن عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه؛ فقد كان أبوه من أشد المعاندين للرسول ﷺ ومن الذين قُتِلُوا في بدر، وورث صفوان بن أمية هذه الكراهية من أبيه للإسلام والمسلمين، وحارب الرسول ﷺ بكل طاقته، وكان ممن التفَّ حول ظهر المسلمين في

(١) الحاكم: المستدرك ٣/ ٢٧٠.
(٢) البخاري عن سهل بن سعد: كتاب المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب (٣٤٩٨)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب (٢٤٠٦).
(٣) رواه الحاكم في المستدرك عن أبي رافع (٦٥٣٧)، والطبراني في المعجم الكبير (٩٣٠).

أُحد هو وخالد بن الوليد، واشترك اشتراكًا كبيرًا في قتل سبعين من شهداء الصحابة ﷺ، واشترك أيضًا في غزوة الأحزاب، وكان من الذين شاركوا في عملية القتال في داخل مكة المكرمة.

بل إن صفوان بن أمية كان قد دبَّر محاولة لقتل الرسول ﷺ، وكانت هذه المحاولة بينه وبين ابن عمه عمير بن وهب، وكان وقتها لا يزال كافرًا.. وفيها تعهَّد صفوانُ بن أمية لعمير بن وهب أن يتحمل عنه نفقات عياله، وأن يسدِّد عنه دَيْنه، في نظير أن يقتل عميرٌ رسول الله ﷺ..!!

غير أن المحاولة فشلت، وذلك عندما أسلم عمير بن وهب[١] ﷺ في المدينة المنورة بعد أن أخبره الرسول ﷺ بما دار بينه وبين صفوان في حجر الكعبة!!

ومرَّت الأيام، وجاء فتح مكة، وفرَّ صفوان بن أمية، ولم يجد له مكانًا في مكة المكرمة، وعلم أنه لن يُسْتَقْبَلَ في أي مكان في الجزيرة العربية؛ فقد أصبح الإسلام في كل مكان، فقرَّر أن يُلقِي بنفسه في البحر ليموت، فخرج صفوان في اتجاه البحر الأحمر ومعه غلام اسمه يسار[٢]، وليس معه أحد غيره حتى وصل إلى البحر الأحمر، وهو في أشد حالات الهزيمة النفسية،

---

(١) هو عمير بن وهب الجمحي القرشي، شهد بدرًا مع المشركين، وحاول قتل النبي ﷺ إلا أنه أسلم وحسُن إسلامه، وعاش إلى خلافة عمر. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ٢٩٤، وابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ٧٩٧، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٦٠٥٨).

(٢) هو أبو فكيهة يسار ﷺ مولى صفوان بن أمية، قال ابن إسحاق: كان رسول الله ﷺ إذا جلس في المجلس يجلس إليه المستضعفون من أصحابه: خباب وعمار وأبو فكيهة يسار. انظر: ابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (١٠٣٨٤)، وابن الأثير: أسد الغابة ٥/ ٢٤٩.

ورأى صفوان من بعيد أحد الرجال يتتبعه، فخاف، وقال لغلامه: ويحك! انظر من ترى؟

قال الغلام: هذا عمير بن وهب.

فقال صفوان: وماذا أصنع بعمير..؟! والله ما جاء إلا يريد قتلي، فهو قد دخل في الإسلام، وقد ظاهر محمدًا عليَّ.

ولحق عمير بن وهب ﷺ بصفوان بن أمية، فقال له صفوان: يا عمير، ما كفاك ما صنعتَ بي! حمَّلتني دَيْنَك وعيالَكَ، ثم جئتَ تريد قتلي.

فقال: أبا وهب، جُعِلْتُ فِدَاكَ..! قد جِئتُكَ من عِنْدِ أَبَرِّ الناس، وأوصل الناس.

لقد رأى عمير بن وهب ابن عمه وصديقه القديم صفوان يهرب من مكة فَرَقَّ له، وأشفق عليه، فأسرع إلى رسول الله ﷺ، وقال له: يا رسول الله، سيِّد قومي خرج هاربًا ليقذف نفسه في البحر، وخاف ألاَّ تُؤَمِّنَهُ، فداك أبي وأمي.

فقال الرسول ﷺ: «قَدْ أَمَّنْتُهُ»!!

هكذا!!

وتمامًا مثلما ﷺ فعل مع قرينه «عكرمة».

إنها ليست أبدًا مواقف عابرة، إنه -باختصار- منهج حياة..!

قال عمير بن وهب لصفوان: إن رسول الله قد أَمَّنَكَ.

فخاف صفوان، وقال: لا -والله- لا أرجع معك حتى تأتيني بعلامةٍ أعرفها.

فرجع عمير بن وهب إلى الرسول ﷺ، وقد بذل مجهودًا كبيرًا في السعي من البحر الأحمر إلى مكة، وهي مسافة تقرب من ثمانين كيلو مترًا ذهابًا فقط!

قال عمير لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، جئتُ صفوانَ هاربًا يريد أن يَقْتُلَ نفسه، فأخبرته بما أَمَّنْتَهُ، فقال: لا أرجع حتى تأتيني بعلامة أعرفها.

فقال الرسول ﷺ في منتهى التسامح: «خُذْ عِمَامَتِي إِلَيْهِ»!!

فأخذ عمير العمامة، وذهب إلى صفوان بن أمية، حتى وصل إليه، وأظهر له العمامة وقال له: يا أبا وهب، جئتك من عند خير الناس، وأوصل الناس، وأبرِّ الناس، وأحلم الناس، مجده مجدك، وعِزُّه عزك، ومُلْكُهُ مُلْكُكَ، ابنُ أمِّك وأبيك، أُذكِّرك اللهَ في نفسك.

فقال له صفوان في منتهى الضعف: أخافُ أن أُقتل!

قال: قد دعاك إلى أن تدخل في الإسلام، فإن رضيت وإلا سَيَّرك شهرين!!

ولننظر إلى هذا العرض السخي من رسول الله ﷺ، فلو أسلم صفوان لانتهت القضية، وأصبح له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين، وإن أراد أن يأخذ شهرين كاملين يفكر فيهما، فهو في أمان!

فرجع صفوان بن أمية مع عمير بن وهب إلى رسول الله ﷺ، ودخل الحرم، والرسول ﷺ يصلي بالناس صلاة العصر فوقفا معًا، حتى ينتهي الرسول ﷺ من الصلاة، فقال صفوان لعمير بن وهب: كم تُصلون في اليوم والليلة؟

قال: خمس صلوات.

قال: يصلي بهم محمد؟

قال: نعم.

فلما سلم الرسول ﷺ وانتهى من صلاته، صاح صفوان يخاطب النبي ﷺ من بعيد: يا محمد، إن عمير بن وهب جاءني بعمامتك، وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك، فإن رضيتُ أمرًا وإلا سَيَّرْتَنِي شهرين.

فقال ﷺ في رفق وسهولة: «انْزِلْ أَبَا وَهْبٍ». (وانظر إليه يُكَنِّيهِ ويَتَلَطَّفُ إليه!).

فقال صفوان في خوف: لا -والله- حتى تُبيِّن لي!!

فقال الرسول ﷺ: «بَلْ تَسِيرُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ»!

وبالفعل أطلق الرسول ﷺ صفوان بن أمية أربعة أشهر كاملة ليفكر..[1]!!

---

(١) القصة كاملة في الموطأ برواية يحيى الليثي عن مالك عن ابن شهاب (١١٣٢)، وفي مصنف عبد الرزاق عن الزهري (١٢٦٤٦).

ثم كان خروج رسول الله ﷺ إلى حنين، واحتاج إلى الدروع والسلاح كما مر بنا، وكان صفوان بن أمية من تجار السلاح المعروفين في مكة، ومع ذلك لم يأخذ رسول الله ﷺ السلاح منه عنوةً، إنما استقرضه بالثمن! ولم يستغل ضعفه، وقِلَّةَ أعوانه، وإسلام مكة كلها تقريبًا إلا هو.

وخرج صفوان مع المسلمين إلى حنين ليرعى أسلحته، وانكسر المسلمون في أول الأمر، ثم أُتبع الانكسار بانتصار مهيب، وجمع المسلمون غنائم لم يسمع بها العرب قبل ذلك، وقام رسول الله ﷺ بما لم يقم به قائد في تاريخ البشرية؛ إذ وقف يقسِّم الغنائم بكاملها -على كثرتها!!- على الجنود دون أن يحتفظ لنفسه بشيء!

وكان ﷺ يُعطي المؤلفة قلوبهم[١] من المسلمين مائةً مائةً من الإبل والشياه، وحقَّق المؤلفة قلوبهم من الثروة ما أذهل عقولهم، حتى تنازل السادة عن كبريائهم وعِزَّتهم، وذهبوا يطلبون العطاء المرة تلو المرة! والرسول ﷺ لا يردُّ سائلاً، ولا يمنع طالبًا.

ومن بعيد يقف صفوان بن أمية متحسِّرًا وهو يشاهد توزيع الغنائم، فهو ما زال من المشركين، وليس له إلا إيجار السلاح.. ولكنْ حَدَثَ في لحظةٍ ما أذهل صفوان، وأذهل المشاهدين للموقف والسامعين عنه،

---

(١) المؤلفة قلوبهم: قومٌ من سادات العرب أَمر الله تعالى نبيه ﷺ في أول الإسلام بتَأَلُّفِهم؛ ليُرَغِّبوا مَن وراءهم في الإسلام؛ فلا تَحْمِلهم الحَمِيَّةُ مع ضَعْف نيَّاتهم على أَن يكونوا إِلْبًا مع الكفار على المسلمين، منهم الأَقْرَعُ بن حابِسٍ التميميُّ، والعباسُ بن مِرْداسٍ السُّلَمِيُّ، وعُيَيْنَةُ بن حِصْن الفَزارِيُّ، وأبو سفيانَ بن حَرْبٍ. ابن منظور: لسان العرب، مادة ألف ٩/ ٩.

وسيظلُّ مذهلاً للناس إلى يوم القيامة!!

لقد نادى رسولُ الله ﷺ صفوانَ بن أمية، وأعطاه مائة من الإبل، كما أعطى الزعماء المسلمين من أهل مكة!!

أيتوقع إنسان -أيًّا كان كرمه أو سخاؤه- أن يحدث منه مثل هذا..؟!!

ولم تكن ذلك نهاية الموقف!

لقد وجد رسول الله ﷺ أن صفوان ما زال واقفًا، ينظر إلى شِعْبٍ من شِعاب حُنين، قد مُلِئ إبلاً وشياه، وقد بَدَتْ عليه علامات الانبهار والتعجُّب من كثرة الأنعام، فقال له ﷺ في رِقَّة: «أَبَا وَهْبٍ، يُعْجِبُكَ هَذَا الشِّعْبُ؟».

قال صفوان في صراحة شديدة: نَعَمْ.

إنه لا يستطيع أن يترفع وينكر.. إن المنظر باهر حقًّا!!

قال الرسول ﷺ في بساطة وكأنه يتنازل عن جمل أو جملين: «هُوَ لَكَ وَمَا فِيهِ»[1]!!

أذهلت المفاجأة صفوان، ووضحت أمام عينيه الحقيقة التي ظلت غائبة عنه سنين طويلة، ولم يجد صفوان بن أمية نفسه إلا قائلاً: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله!!

---

(١) ابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٢٥٣-٤٣٤.

وأسلم صفوان في مكانه!!

يقول صفوان بن أمية: والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ، وأعطاني، وإنه لأبغض الناس إليَّ، فما برح يعطيني حتى صار أحبَّ الناس إليَّ[(١)]!!

أيُّ خير أصاب صفوان ﷺ..!!

أيُّ خير تحقق لقبيلة بني جُمَح عندما أسلم زعيمها..!!

وأيُّ خير تحقق لمكة..!!

وأيُّ خير تحقق للمسلمين، وقد أضيفت إليهم قوة الزعيم المكي المشهور صفوان بن أمية، والذي حسن إسلامه بعد ذلك، وصار من المجاهدين في سبيل الله؟!

إن كل هذا الخير قد تحقق بوادٍ من الإبل والشياه!

وما هي قيمة هذه الإبل والشياه؟!

إنها إمَّا أن تؤكل أو تموت..

إن الدنيا بكاملها -وليست الإبل والشياه فقط- تفنى وتزول، ولكن الذي لا يزول هو نعيم الجنة، وكم من البشر سيخلد في نعيم الجنة؛ لأنه أُعطى ذات يوم مجموعة من الإبل والشياه!

أليس هذا فهمًا راقيًا من رسول الله ﷺ لحقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة وحقيقة الغنائم وحقيقة البشر؟!

---

(١) مسلم: كتاب الفضائل، باب ما سُئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا. وكثرة عطائه (٢٣١٣).

أليس هذا تقديرًا صائبًا من الرسول الحكيم ﷺ في هذه المقارنة السريعة التي عقدها؟!

الأغنام في مقابل الإسلام..!!

الدنيا في مقابل الآخرة..!!

لقد وجد الرسول ﷺ أن الأغنام -مهما كثرت- ثمن زهيد جدًّا للإسلام، فهانت عليه، بل هانت عليه الدنيا بكاملها، فأعطاها دون تردُّد، فالدنيا عنده لا تعدل جناح بعوضة، والدنيا عنده قطرة في يَمٍّ واسع، والدنيا عنده أهون من جَدْيٍ أَسَكَّ[1] مَيِّتٍ، ولم يكن هذا كلامًا نظريًّا فلسفيًّا، وإنما كان حقيقة رآها كل المعاصرين له ﷺ بعيونهم، كان واقعًا في حياته، وحياة الصحابة ﷺ، وحياة من عاملهم من المسلمين وغير المسلمين.

ولم يتبقَّ في يده شيء لنفسه ﷺ!!

لم يتبق ما يُعَوِّضُ به فقر السنين، وانقضاء العمر، وقد بلغ الستين بل تجاوزها!

لم يحتفظ بشيء، ورأى الناس منه ما جعل عقولهم تطيش، وأفئدتهم تضطرب، فانطلق الأعرابُ يزدحمون عليه ﷺ يطلبون المال والأنعام لأنفسهم قبل أن تنفد، حتى اضطروه ﷺ -وهو الزعيم المنتصر والقائد الأعلى- أن يلجأ إلى شجرة، وانتزع الأعراب رداءه، فقال في أدبٍ ورفقٍ، ولينٍ يليق به كنبيٍّ، ويجدر به كمُعَلِّمٍ:

---

(١) أسك: أي صغير الأذنين.

أَيُّهَا النَّاسُ، رُدُّوا عَلَيَّ رِدَائِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَ لَكُمْ عِنْدِي عَدَدَ شَجَرِ تِهَامَةَ نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ عَلَيْكُمْ، ثُمَّ لاَ تَجِدُونِي بَخِيلاً، وَلاَ جَبَانًا، وَلاَ كَذَّابًا»[١].

وصدق ﷺ.. فما كان بخيلاً، ولا جبانًا، ولا كذابًا.

وكما حدث مع الزعماء السابقين، فقد مرَّ سهيل بن عمرو بالتجربة نفسها.

برُّه ﷺ مع سهيل بن عمرو:

كان سهيل بن عمرو من كبار زعماء قريش بل مكة، وكان من الزعماء الذين لهم تاريخ أسود وطويل مع رسول الله ﷺ، وكان من كبار السن، وله من الأولاد الكثير، وهؤلاء الأولاد معظمهم في جيش المسلمين الفاتح لمكة المكرمة، وبعد أن فُتِحَتْ مكة المكرمة، لم يجد له عونًا من الزعماء الذين كانوا معه قبل ذلك، فقد فرُّوا أمام الجيش الإسلامي، ففرَّ هو الآخر ودخل بيته كما يقول: «فانقحمت في بيتي، وأغلقت عليَّ بابي»!!

ثم يقول: وأرسلتُ إلى ابني عبد الله بن سهيل[٢] -وهو من جنود

---

(١) البخاري عن جبير بن مطعم: كتاب الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم (٢٩٧٩)، وابن حبان (٤٨٢٠)، ومالك برواية يحيى الليثي عن عمرو بن شعيب (٩٧٧).

(٢) عبد الله بن سهيل: هو عبد الله بن سهيل بن عمرو القرشي العامري، يكنى أبا سهيل، هاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ثم رجع إلى مكة فأخذه أبوه وأوثقه عنده وفتنه في دينه، ثم خرج مع أبيه سهيل بن عمرو يوم بدر وكان يكتم أباه إسلامه، فلما نزل رسول الله ﷺ بدرًا انحاز من المشركين، وهرب إلى رسول الله ﷺ مسلمًا، وشهد معه بدرًا والمشاهد كلها. استُشْهِدَ يوم اليمامة سنة ١٢هـ. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ٥٧، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٤٧٣٤).

الجيش الإسلامي الفاتح- أن اطلب لي جوارًا من محمد، وإني لا آمن من أن أُقتل، فليس أحد أسوأ أثرًا مني؛ فإني لقيت الرسول ﷺ يوم الحديبية بما لم يلقه أحد، وكنت الذي كاتبه، مع حضوري بدرًا وأُحُدًا ضد المسلمين[١].

إنه لصاحب تاريخ طويل في الصدِّ عن سبيل الله، وكان صارمًا وعنيدًا جدًّا يوم الحديبية، ثم إنه رفض انضمام ابنه إلى صف المسلمين برغم شفاعة الرسول ﷺ أكثر من مرة، ولكنه الآن يقف موقفًا صعبًا خطيرًا يجعل احتمال القتل واردًا جدًّا، وتملَّكه الرعب إلى الدرجة التي جعلته لا يتردد في أن يطلب من ابنه الصغير أن يتوسط له عند رسول الله ﷺ..!!

وفي هذا -كما هو واضح- ما فيه من جُرحٍ عميقٍ لنفس الزعيم الكبير..

يقول سهيل بن عمرو: ذهب عبد الله بن سهيل إلى الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله، أَمِّنْه.

فقال ﷺ دون تردُّد: «نَعَمْ، هُوَ آمِنٌ بِأَمَانِ اللهِ فَلْيَظْهَرْ»[٢]!!

ولنقارن هذا التعامل من الرسول ﷺ مع كبار زعماء مكة المكرمة بما يحدث عند احتلال دولةٍ لدولة أخرى..!!

إننا نرى الأمراء والوزراء والكبراء في البلد المغلوب وقد استُهْدِفُوا بالقتل أو النفي أو السجن لفترات طويلة، ولا يخفى على أحد مدى الإهانة

(١) انظر: ابن الأثير: أسد الغابة ٢/ ٣٤٦.

(٢) انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ٥٧، وابن حجر: الإصابة ٣/ ٢١٩.

التي يتعرضون لها، لكن الرسول ﷺ لا يكتفي بإعطاء الأمان لزعماء العدو، بل ويَحُضُّ الجميع على احترامهم، وعلى عدم التعرُّض لهم بكلمة جارحة، ولا حتى بنظرة مؤذية، فيقول ﷺ لأصحابه في رُقِيٍّ عجيبٍ، وفي أدبٍ رفيعٍ: «مَنْ لَقِيَ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو فَلاَ يَشُدَّ النَّظَرَ إِلَيْهِ»[(١)]!!

إن الرسول ﷺ يمنع الصحابة من أن يشددوا النظر إلى سهيل بن عمرو شماتةً فيه، أو تشفيًا منه! بل إنه يفعل ما هو أعظم من ذلك، فيمدح سهيلاً، ويُثني عليه، فيقول ﷺ لأصحابه: «... فَلَعَمْرِي إِنَّ سُهَيْلاً لَهُ عَقْلٌ وشَرَفٌ، وَمَا مِثْلُ سُهَيْلٍ جَهِلَ الإِسْلامَ، لَقَدْ رَأَى مَا كَانَ يُوضَعُ فِيهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ بِنَافِعٍ».

والكلمات تعجز عن التعليق!!

وانطلق عبد الله بن سهيل إلى أبيه ليخبره بعفو الرسول ﷺ عنه، فلما ذكر له هذه الكلمات، قال سهيل: كان والله بارًّا صغيرًا وكبيرًا[(٢)]!!

وتوجه سهيل بن عمرو إلى الرسول ﷺ وأسلم بين يديه، وتغَيَّرت حياته كُلِّيَّةً بعد هذا اليوم، وكان -كما يقول الرواة- كثير الصلاة والصوم والصدقة، وخرج مجاهدًا في سبيل الله، بل كان أميرًا على إحدى فرق المسلمين في موقعة اليرموك.

فانظر إلى جميل فعله ﷺ وكيف كان يحوِّل حياة الناس إلى ما لا يتخيله

---

(١) انظر: المصدرين السابقين.

(٢) ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ٥٧.

أحد؛ وذلك بحسن المعاملة، وسعة الصدر، ونسيان الضغائن والأحقاد.

برُّه ﷺ مع فضالة بن عمير:

لقد كان فضالة بن عمير من أشدِّ أعداء الرسول ﷺ، ووصل حقده على الرسول ﷺ إلى الدرجة التي أراد معها أن يقتله في وقت الفتح..!!

وهذا أمر جِدُّ خطير؛ فالرسول ﷺ في وسط جيش كبير يبلغ عشرة آلاف من الصحابة رضوان الله عليهم، وإذا قام فضالة بن عمير بهذا التَهَوُّر فلا شك أنه مقتول، ومع ذلك فقد أعمى الحقد قلبه، فقرَّر أن يضحِّي بنفسه ليقتل الرسول ﷺ..!!

حمل فضالة السيف تحت ملابسه، ومرَّ بجوار الرسول ﷺ وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه، قال الرسول ﷺ: «أَفُضَالَةُ؟».

قال: نعم، فضالة يا رسول الله. (وكان يدَّعِي الإسلام في ذلك الوقت).

فقال ﷺ: «مَاذَا كُنْتَ تُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَكَ؟».

قال: لا شيء، كنتُ أذكر الله.

وضحك الرسول ﷺ، وقال: «اسْتَغْفِرِ اللهَ يَا فُضَالَةُ».

ثم وضع ﷺ يده على صدر فضالة، فسكن قلبه!!

فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله

شيءٌ أحبُّ إليَّ منه ﷺ[1].

كان هذا هو تعامله ﷺ مع رجلٍ لم يكتفِ بالتخطيط لقتله فحسب، بل اجتهد في تطبيق ما خَطَّطَ، وحمل السيف واقترب، لولا أنْ حَفِظ الله ﷻ رسوله.

برُّه ﷺ مع هند بنت عتبة:

إذا كانت تلك المواقف التي مرت بنا تحوي من العظمة ما تحوي، فإن موقفه ﷺ مع هند بنت عتبة لا يقلُّ عظمة عمَّا سبق.

فقد كانت هند بنت عتبة من النساء اللاتي حاربن الإسلام طويلاً، ولسنواتٍ كثيرة، ولها ذكريات مؤلمة جدًّا في أذهان المسلمين، بل وعند رسول الله ﷺ شخصيًّا.

وهي زوجة أبي سفيان ﷺ، وابنة عتبة بن ربيعة القائد القرشي المشهور، وكانت من أشدِّ الناس حقدًا على المسلمين، وكان هذا الحقد كبيرًا من أول أيام الإسلام، ولكنه زاد بشدة وتضاعف بعد يوم بدر؛ بعد أن قُتل في ذلك اليوم أبوها عتبة بن ربيعة، وعمها شيبة بن ربيعة، وابنها حنظلة بن أبي سفيان، وأخوها الوليد بن عتبة..

فهؤلاء أربعة من أقرب الأقربين إليها، وهم جميعًا من سادة قريش؛ فأورث ذلك في قلبها كراهية لا يماثلها فيها أحد، وظلت على هذا العداء منذ بدر وحتى فتح مكة، وكانت من اللائي خرجن مع جيش الكفار في

---

(١) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٣٤٢.

موقعة أحد، فكانت تُحمِّس الجيش القرشيَّ قدر ما تستطيع لقتال المسلمين، ولما فرَّ الجيش من أمام المسلمين في أول المعركة كانت تقذف في وجوههم التراب، وتدفعهم دفعًا لحرب المسلمين، ولم تفرَّ كما فرَّ الرجال..!!

ثم إنه بعد انتصار أهل مكة على المسلمين في نهايات موقعة أحد قامت بفعل شنيع، فقد قامت بالتمثيل بالجثث المسلمة الواحدة تلو الأخرى، فكانت تُقَطِّع الآذانَ والأنوفَ، حتى وصلت إلى حمزة بن عبد المطلب ﷺ عمِّ الرسول ﷺ فبقرت بطنه، وأخرجت كبده، وفي حقدٍ شديد لاكت[1] منه قطعة، فما استساغتها، فلفظتها..!!

وقد أثَّر هذا الموقف بشدة في رسول الله ﷺ، وترك في قلبه جرحًا عميقًا..

يقول أبو هريرة ﷺ: وقف رسول الله ﷺ على حمزة، وقد مُثِّلَ به، فلم يَرَ منظرًا كان أوجع لقلبه منه، فقال: «رَحِمَكَ اللهُ أَيْ عَمِّ؛ فَلَقَدْ كُنْتَ وَصُولاً لِلرَّحِمِ، فَعُولاً لِلْخَيْرَاتِ»[2].

فتخيل مدى الغضب الذي في قلب رسول الله ﷺ ناحية هند.

ثم إن هند بنت عتبة خرجت مع المشركين في غزوة الأحزاب، بل استمرَّت في حربها ضد الإسلام حتى اللحظات الأخيرة قُبَيْلَ فتح مكة، حتى إنها رفضت ما طلبه زوجها من أهل مكة أن يدخلوا إلى بُيُوتهم؛ طلبًا

---

(١) لاكت: مضغت.

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة ١/ ٦٠٤.

لأمان الرسول ﷺ، بل دَعَت أهل مكة لقتل زوجها أبي سفيان عندما أَصَرَّ على الخضوع لرسول الله ﷺ، ودفعتهم دفعًا إلى القتال[1]!!

إنه تاريخ طويل وشرس لهذه المرأة مع المسلمين.

وبعد هذه الرحلة الطويلة للصدِّ عن سبيل الله، فتح رسول الله ﷺ مكَّة، وأقبل أهلُها من كلِّ مكان يبايعون على الإسلام..

ومن بعيد جاءت هند بنت عتبة، وهي منتقبة متنكِّرة لا يعرفها ﷺ، تريد أن تبايع كما يبايع الناس!!

وكانت بيعة النساء على: أن لا يُشْرِكْنَ بالله شيئًا، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصينه ﷺ في معروف.

إن أيَّ مُطَّلِعٍ على الأمور لن يفترض في قدوم هند بنت عتبة للبيعة إلا محاولة منها للهروب من حكمٍ بالقتل هو لا محالة صادر!!

ولكن الموقف كان شديد البُعد عن توقعات الناس! فماذا فعل رسول الله ﷺ؟!

لقد بدأت النساء تبايع، وقال ﷺ لهن: «بَايِعْنَنِي عَلَى أَلاَّ تُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا».

فقالت هند وهي منتقبة، والرسول ﷺ لا يعرفها: والله إنك لتأخذ علينا ما لا تأخذه من الرجال.

(١) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٣٢٤.

أي أن هناك تفصيلات كثيرة للنساء، والرجال قد بايعوا بيعة واحدة، لكن الرسول ﷺ لم يلتفت إلى اعتراضها، وأكمل:

«وَلاَ تَسْرِقْنَ».

فوقفت هند وقالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني، ويكفي بَنِيّ، فهل عليَّ من حرجٍ إذا أخذت من ماله بغير علمه؟!

فقال ﷺ: «خُذِي أَنْتِ وَبَنُوكِ مَا يَكْفِيكِ بِالْمَعْرُوفِ»[1].

ثم انتبه ﷺ إلى أن هذه التي تتكلم هي هند بنت عتبة زوج أبي سفيان، فقال ﷺ: «وَإِنَّكَ لَهِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ»؟!

قالت: نعم، هند بنت عتبة، فاعفُ عمَّا سلف، عفا الله عنك.

إنها لحظة فاصلة في حياة هند بنت عتبة!

تُرى ماذا سيفعل رسول الله ﷺ عندما يتذكر تاريخها الطويل، وعندما يتذكر حمزة بن عبد المطلب ﷺ، وما حدث له على يدها..؟!

لكن رسول الله ﷺ كعادته وطبيعته يعفو ويصفح، فلم يُعَلِّقْ بكلمةٍ واحدة على كل ذكرياته المحزنة، بل تنازل عن كل الحقوق، وقَبِل إسلامها ببساطة، وأكمل البيعة مع النساء وكأنه لم يتأثر أبدًا!!

قال رسول الله ﷺ: «وَلا تَزْنِينَ»..

---

(١) البخاري: كتاب البيوع، باب من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم في البيوع والإجارة (٢٠٥٩)، واللفظ له، ومسلم: كتاب الأقضية، باب قضية هند (١٧١٤).

واستمرت هند في اعتراضاتها، فقالت: يا رسول الله، وهل تزني الحرة؟!

فلم يتوقف الرسول ﷺ، بل أكمل:

«وَلا تَقْتُلْنَ أَوْلادَكُنَّ».

فقالت هند: قد ربيناهم صغارًا، وقتلتهم كبارًا، هل تركت لنا ولدًا إلا قتلته يوم بدر؟! أنت قتلت آباءهم يوم بدر، وتوصينا الآن بأولادهم!!

فلم ينفعل رسول الله ﷺ ولم يقل لها: ولماذا قاتلناهم في بدر؟!

أفلم يكن ذلك لأن المشركين -ومنهم أبوك وعمك وأخوك وابنك- حاربونا ليل نهار ليفتنونا عن ديننا، وقهرونا وعذبونا، وصادروا ديارنا وأموالنا؟!

لم يقل رسول الله ﷺ شيئًا من ذلك، وإنما كان ردُّ فعله عجيبًا!!

لقد تبَسَّم ﷺ ولم يقل شيئًا، وأخذ الموضوع بشيء من البساطة، وقدَّر موقف هند بنت عتبة، ومدى صعوبة الإسلام عليها.. ثم قال ﷺ: «وَلا تَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ تَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيدِيكُنَّ وَأَرْجُلِكُنَّ».

فقالت هند: والله إن إتيان البهتان لقبيح.

فقال ﷺ: «وَلا تَعْصِينَنِي فِي مَعْرُوفٍ».

فقالت هند: والله ما جلسنا هنا وفي أنفسنا أن نعصيك في معروف[1].

---

(١) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٣٥٤، ٣٥٥.

وهكذا بايعت نساء مكة جميعًا، بمن فيهن هند بنت عتبة رضي الله عنها هذه البيعة المباركة.

وسبحان مقلِّب القلوب! لقد حسن إسلام هند بنت عتبة، وكما كانت تخرج مع جيوش الكفار لتُحَمِّسَهَا لحرب المسلمين، بدأت تخرج مع جيوش المسلمين لتحمِّسَهُمْ لحرب الكفار!!

وكان من أشهر مواقفها يوم اليرموك عندما بدأت تشجِّع المسلمين على القتال في سبيل الله، وعلى خوض غمار المعركة الهائلة ضد مائتي ألف رومي، فكانت من أسباب النصر العظيمة في ذلك اليوم المجيد.

لقد أصبحت هند بنت عتبة رضي الله عنها إضافةً قويةً للأمة الإسلامية، وكانت البداية موقفًا بديعًا من الرسول ﷺ، وما أكثر الأعداءَ الذين تحوَّلُوا إلى أخلص الأصدقاء بموقف منه ﷺ..!!

* **

المبحث الثاني

برُّه ﷺ مع زعماء القبائل الأخرى

لم يكن ذلك التسامح النبوي غير المتناهي في العظمة خاصًّا بزعماء قريش وحدها، رجالاً كانوا أو نساءً، وإنما تجاوزهم إلى كثير من قادة القبائل المختلفة. وفي هذا المبحث سنقتصر على ثلاثة من أبرزهم وأشدِّهم عداءً أو إيذاءً للنبي ﷺ.. وذلك من خلال ما يلي:

برُّه ﷺ مع مالك بن عوف النصري:

لقد كان موقف رسول الله ﷺ مع مالك بن عوف النصري زعيم قبائل هوازن موقفًا أعجب من أن يُستوعَب!!

كان مالك بن عوف زعيمًا خطيرًا من زعماء العرب، وقد استطاع أن يجمع جيشًا رهيبًا من قبائل هوازن وأعوانها من قبائل ثقيف وغيرها، بلغ قوامه خمسة وعشرين ألف مقاتل، وهو أكبر الجيوش العربية مطلقًا، وحفَّزهم تحفيزًا كبيرًا لقتال رسول الله ﷺ لدرجة أنهم قبلوا أن يأخذوا معهم إلى أرض القتال نساءهم وأولادهم وأنعامهم وأموالهم كحافزٍ لهم على عدم الفرار..!!

وهم بذلك يُضَحُّون بكلِّ ما يملكون من أجل قتال المسلمين.

لقد كان الهدف واضحًا في ذهن مالك بن عوف، وهو استئصال المسلمين من جذورهم، وخطَّط لذلك تخطيطًا مُحكمًا، والتقى مع المسلمين في صدامٍ مروِّع بالقرب من وادي حنين[1]، وكادت خطته أن تُفْلِح، حتى زُلْزِلَ المسلمون زلزالاً شديدًا، وتعرضوا لأشد أزمة في تاريخهم مطلقًا، وكاد الوجود الإسلامي أن ينتهي، وكاد الرسول ﷺ أن يُقْتَلَ..!!

إنها أزمة الأزمات حقًّا!

ولكن شاء الله ﷻ بعد هذا الصدام المروِّع أن ينتصر المسلمون، وأن تَفِرَّ هوازن وثقيف أمام الجيش الإسلامي، وكان مالك بن عوف من الذين فرُّوا، وانضموا إلى أهل ثقيف في حصون الطائف..!!

وفي الوقت ذاته الذي فرَّ فيه مالك بن عوف، فكَّرت قبيلة هوازن في الإسلام، وكان الدافع الرئيسي لها في أول إسلامها هو استرداد النساء والأنعام التي أخذها المسلمون سبيًا وغنيمةً، ووجد مالك بن عوف نفسه وحيدًا شريدًا بعد أن كان قائدًا مُمَكَّنًا..

لقد وجدَ نفسه بلا مالٍ ولا ثروةٍ، وكذلك بلا قبيلةٍ ولا عُزْوَةٍ، وفوق ذلك فهو لاجئ عند قبيلة أخرى -قبيلة ثقيف- لا يأمَنُها على نفسه..!!

لقد كان في أشدِّ حالات الانكسار التي من الممكن أن يتعرض لها قائد.

---

(١) وادي حنين: واد بين الطائف ومكة، قاتل فيه النبي ﷺ قبيلة هوازن بعد فتحه مكة، وانتصر عليهم في وقعة مشهورة.

وبينما هو في هذه الحالة المؤسفة المخزية، كان هناك من يفكِّر في أمره!!

إنه رسول الله ﷺ..!!

لقد سأل رسول الله ﷺ عن مالك بن عوف، وإلى أيِّ شيءٍ صار، فقال قومه: إنه في الطائف في حصون منيعة يخشى على نفسه. فقال ﷺ في روعته المعهودة:

«أَخْبِرُوا مَالِكًا إِنْ أَتَانِي مُسْلِمًا رَدَدْتُ عَلَيْهِ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، وَأَعْطَيْتُهُ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ»[1]!!

هل يمكن أن يتخيل ذلك أحد..؟!

أهذا هو التعامل المتوَقَّع من قائد منتصر مع زعيم الجيش المعادي له، المهزوم أمامه؟!!

إن عموم القادة في العالم ليتلذذون ويستمتعون بمحاكمة ومعاقبة وإذلال زعماء أعدائهم.. أمَّا أن يَرْفُقَ الزعيم المنتصر بزعيم معادٍ له، ويرقَّ له، ويبذل له، ويعطيه بسخاء.. فهذا ما لا يَسْتَوْعِبُ فهمَه قادةُ العالم!!

ووجد مالك بن عوف في كلمات رسول الله ﷺ الإنقاذ له من أزمته، فأسرع مُقبلاً على رسول الله ﷺ، وأعلن إسلامه بين يديه، فَقَبِلَهُ ﷺ دون قيد ولا شرط، ولم يُعَنِّفْهُ، ولم يَلُمْهُ، ولم يستفسر منه عن شيء!!

بل إن رسول الله ﷺ فعل ما هو أعظم من ذلك وأرقى..!! لقد أعاد

---

(١) انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٧٤.

مالك بن عوف ﷺ زعيمًا مرة أخرى على هوازن، بل وكلَّفه بمهمَّة عسكرية في منتهى الأهمية، وهي مهمة حصار مدينة الطائف..!!

لقد احترم رسول الله ﷺ إمكانيات مالك بن عوف القيادية، وحفظ له سمعته ومكانته وقيمته، ولم يهدرها كما أُهْدِرَتْ آلاف وملايين الطاقات نتيجة عنجهية وتكبُّر بعض القادة.

لقد نسي رسول الله ﷺ ماضي مالك بن عوف في لحظة واحدة، وعامله معاملة القواد المحترمين، وحوَّل جهده من الإفساد في الأرض إلى إصلاحها.

فأيُّ خيرٍ عادَ على المسلمين..!! وأيُّ خيرٍ عادَ على هوازن..!! وأي خير عاد على مالك بن عوف..!!

هل نجد -بعد كل هذا- من يتَّهِمُ المسلمين بأنهم لا يعترفون بغيرهم أو يحترمون وجودهم؟ وهل في تاريخ غيرنا ما يشابه -ولو من بعيد- مواقف ذلكم النبي العظيم ﷺ؟!!

إن الحقيقة ظاهرة، وإن الأمر واضح، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

برُّه ﷺ مع عدي بن حاتم الطائي:

مثلما فعل رسول الله ﷺ مع مالك بن عوف فعل مع «عدي بن حاتم» زعيم قبيلة طيئ، وهي من القبائل التي قاومت الإسلام بشدَّة، ولفترة طويلة، وقد كان لها من الخلفيات ما يجعل قبولها للدخول في الدين الجديد «الإسلام» صعبًا..

فقد كانت من فروع ربيعة القحطانية[١]، وهم فرع بعيد جدًّا عن فروع قريش العدنانية، ومن ثَمَّ فالحساسية القَبَلِيَّة بينها وبين قريش كانت على أشدِّ ما يكون، وكان لقبيلة طيئ صنمها الخاص بها واسمه «الفِلْس»، وكان الناس يزورونه من أماكن بعيدة.. ثم إن فريقًا منهم تَنَصَّرَ ويَمَّمَ وجهه شطر الدولة الرومانية، فحالفها وتعاون معها.

ومن ثَم تجمعت عدة عوامل تمنع هذه القبيلة من قبول فكرة الإسلام: أمور قبلية، وأمور عقائدية، فضلاً عن موالاتهم للدولة الأولى في العالم وهي الدولة الرومانية.

فإذا أضفت إلى كل ذلك أنهم كانوا من القبائل القوية التي تبسط سيطرتها على مساحات شاسعة في الجزيرة، حتى لم يكن يأمن أحد على سفره إلى العراق أو الشام إلا بموافقةٍ وقبولٍ من رجال قبيلة طيئ.. إذا أضفت ذلك، علمت أن تفكيرهم في الإسلام سيكون متأخرًا جدًّا.

ثم تدرك مدى عداوتها للإسلام حين تعلم أنَّ من أبنائها «كعب بن الأشرف» الزعيم اليهودي المشهور، الذي ناصب المسلمين العداء في كل مكان؛ فقد كان أبوه من طيئ، وأُمُّه من بني النضير، ولما اشتدَّ كيدُه للمسلمين وألَّب عليهم الجزيرة العربية بكاملها، أمر رسول الله ﷺ بقتله، فقُتل، وفقدت طيئ بمقتله رمزًا مهمًّا من رموزها بين العرب.

(١) تنقسم القبائل العربية إلى قسمين كبيرين هما قحطان وعدنان، فمن فروع عدنان: ثقيف، وبنو كلاب، وبنو بكر بن وائل. ومن فروع قحطان: بجيلة، وبنو طيئ.

كان على رأس هذه القبيلة العزيزة «عدي بن حاتم الطائي»، وهو ابن الزعيم العربي الشهير «حاتم الطائي»، الذي كان مضربًا للمثل في الكرم وحسن الضيافة.

شعر «عدي بن حاتم» أن البساط يُسْحَبُ من تحت أقدامه، وأن مكانته تَهتَزُّ في الجزيرة العربية؛ فحقد حقدًا شديدًا على رسول الله ﷺ حتى يقول: «بُعث رسولُ الله ﷺ حين بُعث، فكرهته أشد ما كَرِهْتُ شيئًا قَطُّ»[1].

ومرَّت الأيام، وفُتِحَتْ مكة، وآمن أهلها، وأسلمت هوازن، وأرسل رسول الله ﷺ السرايا هنا وهناك تَهْدِمُ الأصنام التي تُعْبَدُ من دون الله، وكان من السرايا التي أرسلها ﷺ سرية علي بن أبي طالب ﷺ إلى قبيلة طيئ لهدم صنم الفِلْس، وقاومت طيئ مقاومة شديدة.

ثم إنهم فَرُّوا في كلِّ مكانٍ، وأُسِرَ بعضُهم، وفَرَّ عدي بن حاتم إلى حلفائه من ملوك الشام، وأُسِرَتْ أخته، ولكن رسول الله ﷺ مَنَّ عليها بغير فداء، فانطلقت إلى الشام تدعو أخاها إلى القدوم على رسول الله ﷺ وقالت له: «لقد فعل فِعْلة ما كان أبوك يفعلها، ائته راغبًا أو راهبًا»[2]!!

وكان عدي بن حاتم قد كره حياته كلاجئ في غير بلاده.

ولنترك له الأمر لِيُصَوِّرَ حاله حينئذٍ..

---

(١) ابن الأثير: أسد الغابة ٣/ ٥٠٤، والذهبي: تاريخ الإسلام ١/ ٣٥٤.

(٢) أحمد (١٩٤٠٠)، وابن حبان (٧٢٠٦)، والطبراني في الكبير (١٣٩٢٥).

يقول عدي: «فكرهت مكاني الذي أنا فيه، حتى كنت له أشد كراهية له مني من حيث جئت، فقلت: لآتيَنَّ هذا الرجل، فوالله إن كان صادقًا فلأسمعَنَّ منه، وإن كان كاذبًا ما هو بضائري»[1].

وجاء عدي بن حاتم إلى المدينة المنورة، وهو في هذه الحالة المنكسرة، وهو في هذا الضعف الذي لا يَخْفَى على أحد، فماذا فعل معه رسول الله ﷺ..؟!

يقول عدي بن حاتم: «قال لي رسول الله ﷺ: «يَا عَدِيُّ بْنَ حَاتِمٍ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ» ثلاثًا.. قُلْتُ: إِنِّي عَلَى دِينٍ. قَالَ: «أَنَا أَعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ». فَقُلْتُ: أَنْتَ أَعْلَمُ بِدِينِي مِنِّي؟! قَالَ: «نَعَمْ، أَلَسْتَ مِنَ الرَّكُوسِيَّةِ وَأَنْتَ تَأْكُلُ مِرْبَاعَ قَوْمِكَ؟» قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: «فَإِنَّ هَذَا لاَ يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ». قَالَ: فَلَمْ يَعْدُ أَنْ قَالَهَا فَتَوَاضَعْتُ لَهَا.

فَقَالَ ﷺ: «أَمَا إِنِّي أَعْلَمُ مَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الإِسْلاَمِ؛ تَقُولُ: إِنَّمَا اتَّبَعَهُ ضَعَفَةُ النَّاسِ، وَمَنْ لاَ قُوَّةَ لَهُ، وَقَدْ رَمَتْهُمُ الْعَرَبُ. أَتَعْرِفُ الْحِيرَةَ؟». قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ سَمِعْتُ بِهَا. قَالَ: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ مِنَ الْحِيرَةِ، حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ، وَلَيَفْتَحَنَّ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ». قُلْتُ: كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ؟! قَالَ: «نَعَمْ، كِسْرَى بْنُ

---

(١) أحمد (١٩٣٩٧)، وقال شعيب الأرناءوط: بعضه صحيح وهذا إسناد حسن. والحاكم (٨٥٨٢)، وابن حبان (٦٦٧٩). وأخرج البخاري جزءًا من هذا الحديث، وهو المتعلق ببشريات الرسول ﷺ لعدي عن الحيرة وكنوز كسرى وفيض المال في المناقب، باب علامات النبوة (٣٤٠٠).

هُرْمُزَ، وَلَيُبْذَلَنَّ الْمَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ»(١).

هكذا وفي بساطة شديدة قَبِل رسول الله ﷺ هذا القائد الكبير، والزعيم المعروف في صفوف المسلمين، ولم يقُلْ في نفسه لعلَّه يحرِّك جموعَ طيئ ضد الإسلام، ولم يذكر حربه للمسلمين، ولا كرهه لهم.. إنما تعامل معه في منتهى الحلم والرفق والتقدير.

وقد قال عديٌّ رضي الله عنه بعد ذلك: فَهَذِهِ الظَّعِينَةُ تَخْرُجُ مِنَ الْحِيرَةِ فَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارٍ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِيمَنْ فَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكُونَنَّ الثَّالِثَةُ؛ لأَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ قَالَهَا!!

برُّه ﷺ مع عبد ياليل بن عمرو الثقفي:

نودُّ أن نختم هذا المبحث بموقف رسول الله ﷺ مع شخصية عجيبة، ما توقَّع أحدٌ قطُّ أن يُحسِنَ إليها؛ فقد تركت هذه الشخصية جروحًا عميقة في نفسه ﷺ لعدة سنوات، بل إنه عندما أتى للقاء رسول الله ﷺ لم يأته راغبًا في الإسلام كما أتى الآخرون، إنما جاء يجادل ويناور!!

إنها شخصية من أهم الشخصيات في الجزيرة العربية بكاملها.

إنه «عبد ياليل بن عمرو الثقفي».. زعيم قبيلة ثقيف المشهورة.

وتاريخه مع رسول الله ﷺ شديد السواد..!!

وتبدأ قصته مع رسول الله ﷺ عندما أُغْلِقَتْ أبوابُ الدعوة في مكة بعد وفاة أبي طالب عمِّ النبي ﷺ، فانطلق الرسول ﷺ إلى مدينة الطائف؛

---

(١) أحمد (١٩٣٩٧)، وقال شعيب الأرناءوط: بعضه صحيح وهذا إسناد حسن.

ليدعو قبيلة ثقيف إلى الله، لعلها تقف موقفًا مشرِّفًا معه، فالتقى مع زعماء ثقيف، وكانوا ثلاثة على رأسهم «عبد ياليل بن عمرو»، وعرض عليهم الأمر، فوجد منهم ما لم يتخيَّله من الجحود والإنكار والصد عن سبيل الله، بل وجد منهم السخرية والاستهزاء والاستخفاف، حتى قال زعيمهم «عبد ياليل بن عمرو»: إنه ليمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسله[1]!!

ثم كان من هذا الزعيم وأصحابه ما يَعرف الجميع من حثٍّ للغلمان والسفهاء أن يطاردوا رسول الله ﷺ وصاحبه زيد بن حارثة رضي الله عنه بالحجارة والسباب، حتى أخرجوهما تمامًا من منطقة الطائف.

إن هذا الموقف السفيه من أشدِّ مواقف الدعوة ألمًا على نفس رسول الله ﷺ، وظلَّ الوضع على هذه الصورة القاتمة لسنوات متصلة..

فلم يؤمن أحد من ثقيف إلا القليل، بل لعلَّه لم يؤمن منهم قبل الفتح إلا الصحابي الجليل المغيرة بن شعبة[2] رضي الله عنه، ثم قامت ثقيف بالتحالف مع هوازن لتكوين حزب ضخم يهدف إلى استئصال المسلمين، وذلك في موقعة حُنين في العام الثامن من الهجرة[3].

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ١/ ٥٥٤.

(٢) المغيرة بن شعبة: هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي، أسلم عام الخندق، وقدم مهاجرًا، وقيل: إن أول مشاهده الحديبية. روي عن الشعبي أنه قال: دهاة العرب أربعة: معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد. توفي بالكوفة سنة ٥٠هـ. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٤/ ٧، وابن الأثير: أسد الغابة ٤/ ٤٥٤، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٨١٧٩).

(٣) بعد فتح مكة.

وعند هزيمتهم فرَّت جيوشهم إلى حصونهم في الطائف، فحاصرهم رسول الله ﷺ لمدة شهر كامل[١]، ولكنه لم يقدر على إخراجهم من الحصون، ومن ثَم غادر المنطقة دون أن يفتح الطائف. وكانت هذه صدمة للصحابة ﷺ، لكن رسول الله ﷺ هَوَّنَ عليهم الأمر، بل دعا لثقيف بالهداية.

وقد تفاقم أمر ثقيف عندما قتلت زعيمَها عروة بن مسعود[٢] ﷺ، عندما أسلم ودعاهم إلى الإسلام، فأثَّر ذلك جدًّا في رسول الله ﷺ.

ومرَّت الأيام، وفي رمضان من العام التاسع من الهجرة وجدت قبيلة ثقيف أن قوة المسلمين أصبحت هي القوة الأولى في الجزيرة العربية، وبخاصة بعد فرار الجيوش الرومانية منها في تبوك، ففكَّرت أن تأتي المدينة لتبايع على الإسلام!!

وكان واضحًا من كلامهم وترتيبهم أنهم ما جاءوا حُبًّا للإسلام، ولا اقتناعًا به، ولكن لرؤيتهم أنهم لا طاقة لهم بحرب المسلمين، ومن ثَمَّ كوَّنوا وفدًا يُحاور ويفاوض رسول الله ﷺ، ويصل معه إلى أفضل ما يمكن أن يصلوا إليه، وجعلوا على رأس هذا الوفد «عبد ياليل بن عمرو» الزعيم

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ١٧١.

(٢) هو عروة بن مسعود بن ثقيف، وهو ممن أرسلته قريش إلى النبي ﷺ يوم الحديبية، أعلن إسلامه أمام قومه، ودعاهم إلى الإسلام، فرموه بالنبل من كل وجه، فأصابه سهم فقتله، وقيل له: ما ترى في دمك؟ فقال: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إليَّ، فليس فيَّ إلا ما في الشهداء الذين قُتِلوا في سبيل الله مع رسول الله ﷺ قبل أن يرحل عنكم، فادفنوني معهم. فدفنوه معهم. انظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/ ١٧٦، وابن حجر: الإصابة، الترجمة رقم (٥٥٢٧).

القديم الذي سَخِرَ في يومٍ ما من رسول الله ﷺ سخريةً شديدة، ولكن دارت الأيام دورتها وجاء زعيم ثقيف منكسرًا أمام الرسول العظيم ﷺ، الذي مُكِّن له في الأرض، وأصبح في مركز القوة.

استقبل رسول الله ﷺ وفد ثقيف وعلى رأسه «عبد ياليل» خير استقبال، ولم يُذَكِّرْهُمْ بماضيهم أبدًا، ولم يقل لهم شيئًا عن سخريتهم منه يوم ذهب إليهم ﷺ طالبًا نصرتهم، ولم يقل: هذه بتلك، أو: اليومَ باليومِ الذي سخرتم فيه مني.. بل قابلهم ﷺ بالترحاب وبالبسمة وبالكرم وبالضيافة وبالهدية، بل جلس معهم يستمع لمفاوضاتهم ومقترحاتهم التي كانت في غاية السفاهة، ومع ذلك لم ينفعل عليهم، أو يغضب منهم، بل ناقشهم في هدوء، وتكلَّم معهم في رَوِيَّة!!

لقد طلبوا أن يُسلِموا بشروط منها: أن يأذن لهم في الربا والزنا وفي الخمر، وأن يُعْفَوْا من الصلاة، وأن تُتْرَكَ لهم اللات[١] دون أن تُكسر[٢]!!

لقد كانت مطالب سفيهة تدل على عدم فقهٍ لمعنى الإسلام، ومع سفاهة تلك المطالب إلا أن الرسول ﷺ لم يفقد أعصابه أو يتركهم، إنما أخذ يُفَسِّرُ لهم ويشرح، ورفض مطالبهم هذه في منتهى الأدب، وبأسلوب يَغْلِبُ عليه الرفق واللين، وكان يُحاورهم كل ليلة بعد صلاة العشاء، ويُكثر من الحديث معهم، وكان قد ضرب لهم قُبَّة[٣] في المسجد النبوي[٤] تكريمًا لهم، وتعظيمًا لقَدْرِهِم.

---

(١) اللات: اسْمُ صَنَم كان لثقيف بالطائف. ابن الأثير: النهاية في غريب الأثر ٤/ ٤١٣.
(٢) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٥/ ٣٣، وابن سيد الناس: عيون الأثر ٢/ ٣٠٦.
(٣) قبة: خيمة.
(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/ ٣١٣.

هذا مع أنهم لم يُسلموا بعدُ..

وفي نهاية الأمر، قَبِلَ وفد ثقيف بالإسلام كاملاً دون انتقاص ولا تفريط، ودخلت بعد ذلك قبيلة ثقيف في الإسلام، وكانت من أكثر الناس ثباتًا على الإسلام حتى في زمان الردة.

وليس من شكٍّ أن رسول الله ﷺ لو سلك معهم مسلكًا عنيفًا، أو أظهر فيهم تشفِّيًا وشماتة لكانت حالهم غير هذه الحال، ولأصبحوا حَجَرَ عَثْرَةٍ في طريق الأمن والأمان في الجزيرة العربية، ولكنه ﷺ يُعَلِّمُنَا ما دأب على تذكيرنا به حين قال: «إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ»(١).

ولقد رأينا الخير الواسع الذي عمَّ الجزيرة بكاملها، بل عمَّ العالم بهذا النهج الذي انتهجه في التعامل مع الناس، وفي التعامل مع المخالفين له، والمعترضين عليه، والطاعنين فيه الساخرين منه، وقد صدق ﷺ حين وصف قيمة الرفق بقوله المختصر المبدع: «مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ»(٢).

وصلِّ اللهم وسلِّمْ وبارِكْ على مَنْ عَلَّمَ الناسَ الخيرَ، وهَدَاهم إلى الرُّشد.. رسول الله محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه وسلِّم.

* * *

---

(١) مسلم عن عائشة ﵂: كتاب البر والصلة والأدب، باب فضل الرفق (٢٥٩٣)، وابن حبان (٥٥٢)، والبيهقي في سننه الكبرى (٢٠٥٨٦).

(٢) مسلم: كتاب البر والصلة والأدب، باب فضل الرفق (٢٥٩٢)، وأبو داود (٤٨٠٩)، وابن ماجه (٣٦٨٧)، وأحمد (١٩٢٢٩)، وابن حبان (٥٤٨) عن جرير بن عبد الله البجلي.

الخاتمة

لقد فتحنا في هذا الكتاب صفحة واحدة من صفحات التشريع الإسلامي العظيم، وصفحة واحدة أيضًا من صفحات سيرة رسولنا الكريم ﷺ، ولم نستطع -برغم كل المحاولات- أن نستقصي كل جوانب العظمة، سواءٌ في التشريع الإسلامي أو في التطبيق النبوي لهذا التشريع.. هذا كله بالنسبة لصفحة التعامل مع غير المسلمين، فما بالكم إذا حاولنا أن نستقصي مواطن العظمة في كل التشريع الإسلامي، أو وجوه الإبداع في حياته ﷺ!

إن هذا لأمرٌ تنوء بحمله الجبال!!

إنني في خاتمة هذا العمل أوجِّه عدة نداءات، بناءً على ما وصلنا إليه بعد هذه الجولة السريعة في سيرة وحياة رسولنا الأعظم ﷺ.

أما **النداء الأول** فهو لعموم المسلمين..

أيها المسلمون..

ما أعظم الدين الذي تحتكمون إليه! وما أرقى التشريع الذي تتعبدون لله به! إن الدين الإسلامي شرع مُحْكَمٌ، أنزله الذي يعلم السر وأخفى،

وأَحْكَمَ بُنُودَهُ الذي يعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير.

إنكم -أيها المسلمون- تحملون الرسالة الأخيرة من الله عَجَلَّ إلى خلقه، وهي رسالة عظيمة كاملة شاملة، تهدف إلى صلاح الدنيا والآخرة.

إن الله عَجَلَّ قد مَنَّ عليكم بنعمة لا حدود لها، وهي نعمة الإسلام.. فاشكروا الله نعمته؛ يزِدْكُمْ من فضله، وشكر نعمة الإسلام يكون أولاً بتطبيقها في كل جانب -مهما دقَّ وصغر- من جوانب الحياة، ويكون ثانيًا بنقل هذه النعمة واضحة جليَّة إلى شعوب الأرض في كل مكان وزمان.. إن مسئوليتكم كبيرة، وتَبِعَتَكُمْ ضخمة..

إنه قد أُوكِلَ إليكم عمل الأنبياء؛ فليس بعد رسول الله ﷺ رسول، وليس بعد دين الإسلام دين.

أيها المسلمون..

لقد وصلت إليكم الأمانة الثقيلة سليمة صحيحة غير محرَّفة، حملها رجال ونساء مخلصون، سواءٌ في جيل الرسول ﷺ أو في الأجيال التي لحقت، فلا يُؤْتَيَنَّ الإسلام من قِبَلِكُمْ.

أيها المسلمون العظماء..

اعتزوا بدينكم، وافتخروا باتِّباعكم لخير البشر وسيد المرسلين رسول الله ﷺ، ولا يَحْزُنكم الذين يُسارعون في الكفر، إنهم لن يضروا الله شيئًا، ولا يَهُولَنَّكُمْ ما يُشَوِّهُونَ به تاريخ الرسول ﷺ، فإنَّ هذا مكر البشر، ومهما

تزايد وتفاقم فإنه محصور في كلمة ﴿ وَيَمْكُرُونَ ﴾، وعلى الناحية الأخرى لا بُدَّ أن تعرفوا ما يواجهه.. إنه قول ربكم: ﴿ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

إن دين الإسلام باقٍ ما دامت على الأرض حياة، وشريعة الإسلام خالدة ما دام هناك بشر، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

أما **ندائي الثاني** فأوجِّهه إلى غير المسلمين الذين يعيشون في المجتمعات الإسلامية:

هذا هو ديننا..

هل هناك ما يدعو إلى الخوف من تطبيق أحكامه؟!!

إن بنود التشريع الإسلامي والتطبيق الواقعي لها ليشهدان أن غير المسلمين ما وجدوا في العالم كله ما هو أعظم ولا أعدل ولا أبرُّ من التشريع الإسلامي.. إن نصارى ويهود العالم لم ينعموا بعدلٍ مثلما نعموا به في ظل الحكم الإسلامي.

إننا لا نجد في تاريخنا -على اتساعه ورحابته- ما يشير إلى اضطهاد أو ظلم أو إجحاف لطوائف غير المسلمين في المجتمع المسلم.

إننا -إلى زماننا الحالي- ما زلنا نتوارث قواعد البرِّ في التعامل، والعدل في الحكم، والاحترام في العلاقات مع غير المسلمين، أيًّا كانوا في مجتمعاتنا.

وإذا كنتم ترون ظلمًا حقيقيًّا من حاكمٍ من الحكام، أو قاضٍ من

القضاة في مرحلة ما من مراحل التاريخ، أو في مشهد من مشاهد الواقع، فإن هذا -ولا شكَّ- على سبيل الاستثناء، كما أنه -ولا شكَّ أيضًا- ظلم واقع على كل الأطراف، بما فيها الطرف المسلم!! إن الظالم لا يفرِّق في ظلمه بين مسلم وغير مسلم، والعادل كذلك لا يُفَرِّقُ في عدله بين مسلم وغير مسلم.

إن من أبرز علامات العدل عندنا أنه عَدْلٌ مُطْلَقٌ مع كل البشر، بل مع كل مخلوق، سواءٌ من البشر أو من غير البشر!! إنه ليس في ديننا ظلم لِهِرَّة أو ناقة، وليس في ديننا أيضًا ظلم لشجرة أو لنخلة.. فكيف يكون فيه ظلم لبشر؟!!

إن من أعظم الضمانات لغير المسلمين في المجتمع المسلم أننا -نحن المسلمين- نتعبد لله ﷻ بالعدل معهم، والإحسان إليهم.

إننا إذا أوقعنا بغير المسلمين ظلمًا أو ضررًا نكون بذلك مخالفين لشرع ربِّنا، مقترفين ذنبًا عظيمًا سنُحَاسَبُ عليه حسابًا دقيقًا ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

إن الرقابة علينا داخلية، والمحاسبة ذاتية.. إننا لا نحتاج لشرطيٍّ يتابع ولا للجنة تُحَقِّقُ.. إن حبَّ رسولنا ﷺ مزروع في قلوبنا، وهو قد علَّمنا -كما رأينا في هذا الكتاب- أن نرفق بغير المسلمين، وأن نتلطف إليهم، وأن نبسط إليهم أيدينا وألسنتنا وعيوننا وقلوبنا بكل خير.

إننا لا نتكلف شيئًا من ذلك أبدًا.. إن هذه هي طبيعة ديننا، وطريقة

حياتنا، ندعو كل الناس إلى التعرُّف عليها، والتوثُّق منها.

ثم ندائي الثالث والأخير أوجِّهه إلى عموم الناس في الأرض، في زماننا وفي كل الأزمان..

اقرءوا شرع الإسلام وتاريخ المسلمين من مصادره الصحيحة.. إننا قد ظُلِمْنَا كثيرًا في الماضي والحاضر، في التاريخ وفي الواقع.. إن تاريخنا كثيرًا ما كُتِبَ بأيدي أعدائنا، وكثيرًا ما وُصِفَتْ رموزُنا وأعلامُنا بأقلام الحاقدين علينا والحاسدين لنا.

إنه ليس من العدل والإنصاف أن يعرف الناس قصتنا بألسنة من يكرهنا، وليس من العدل والإنصاف أن نُهْمِلَ ما كتبه أبناء الإسلام المخلصون، ونعتمد على غيره من الأباطيل والافتراءات.

إن تاريخ الإسلام قد زُوِّرَ بعناية، وشُوِّهَ عن عَمْدٍ وقَصْدٍ.. لقد عمل الكثير من المستشرقين وأصحاب المصالح وغيرهم على محو ذاكرة الأمة، وعلى طمس معالم الحضارة في تاريخها.. لقد تعاونوا على الإثم والعدوان: فهذا يُزوِّر.. وذاك يُشوِّه.. وهؤلاء يتجاهلون الصحيح، ويُقْبِلُونَ على الضعيف.. وأولئك يُبْرِزُون الأخطاء، ويتغافلون عن المزايا والفضائل.. لقد فعلوا ذلك بخُطَّةٍ مُنَظَّمَة.. وبتدبير محكم؛ حتى خرج لنا التاريخ الإسلامي مسخًا مشوَّهًا، ليست له علاقة -مُطلقًا- بما كنا عليه في الحقيقة.

إنني أنادي وأناشد وأدعو كل باحث عن الحقيقة في العالم، وكل راغبٍ في الوصول إلى خير الأرض وصلاحها، أن يَدْرُسَ الإسلام وتاريخه

من مصادره الأصيلة، ومنابعه الصافية..

إنَّ خيرًا كثيرًا سيضيع، وثروة هائلة ستُبَدَّد، لو أهمل الناس دراسة تاريخنا، وأَوْجُهَ حضارتنا ومجدنا.

إن حلقة «الإسلام» ليست حلقة عابرة في سلسلة الإنسانية الطويلة، إننا حلقة مؤثرة أعمق الأثر، لقد حافظْنا على الخير الذي سَبقَنَا، وطَوَّرْنَاهُ وجَمَّلْنَاهُ..

إن رسولناﷺ قال في إيجازٍ معجز: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ»[1].

فالإسلام أقرَّ الأخلاق الكريمة التي وُجِدَتْ قبله، وأضاف إليها وحسَّن وجمَّل وأتقن.. حتى جاءت الشريعة الإسلامية في أعلى درجات السمو الأخلاقي، وحتى صار الرسول الأكرمﷺ مثلاً أعلى في كلِّ الأخلاق الحميدة، والسمات النبيلة.

أيها المنصفون في كل زمان ومكان..

اقرءوا الإسلام بنظرة حيادية، وسترون ما ستعجزون عن تقدير عظمته، وحصر فضائله..

واعرفوا رسول اللهﷺ؛ فإنه من الظلم الكبير لكم ولشعوبكم ألاَّ تعرفوه.

---

(١) سبق تخريجه ص٧.

أيها الناس..

يا من تعيشون في مشارق الأرض ومغاربها..

إنه ليس في مقدورنا ولا من وظيفتنا أن نجعلكم مسلمين، إنما الذي نملكه وأُمِرْنا به أن نصل برسالتنا إليكم بيضاء نقيَّة، ثم نترك لكم الأمر في حرية تامة..

﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ﴾ [الإسراء: ١٠٧]؛

ونحن على يقين أن هناك يومًا سيحكم فيه ربُّنا بيننا بالحق، وسيعلم الجميع -حينئذٍ- مَن الذي أصاب، ومن الذي أخطأ، ومن الذي اتَّبع الهُدى، ومن كان في ضلال مبين.. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[يونس: ٩٣]؛

وختامًا..

لا أشكُّ في أن الكثير والكثير مما يجب أن يُضَمَّ إلى هذا الكتاب لم أفلح في ضمِّه؛ إما لضيق الوقت، أو خوفًا من التَّكرار، أو سهوًا عن حادثة، أو جهلاً بأخرى.. وعذري أنني بشر، ومن طبيعة البشر النقصان. وما أجمل ما قاله الشافعي[1] رحمه الله -وأحبُّ أن أختمَ به بحثي- وذلك عندما راجع

---

(١) الشافعي: هو أبو عبد الله محمد بن إدريس القرشي، ولد عام ١٥٠هـ، وهو ثالث المجتهدين، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه نسبة الشافعية كافة. وهو أول من دوَّن علم أصول الفقه، قال أحمد بن حنبل: كان الشافعي كالشمس للنهار، وكالعافية للناس، وإني لأدعو له في أثر صلاتي: "اللهم اغفر لي ولوالدي، ولمحمد بن إدريس الشافعي". وقد مات بمصر سنة ٢٠٦هـ.

كتابه الرسالة[١] ثمانين مرة، ثم قال لتلميذه المزني[٢] في النهاية: «هيه! أَبَى الله أن يكون كتابًا صحيحًا غيرُ كتابه»[٣].

وصلِّ اللهُمَّ وسلِّم وبارك على المبعوث رحمةً للعالمين.

د. راغب السرجاني

---

(١) كتاب الرسالة هو كتاب أصول الفقه الشافعي، وهو أول كتاب أُلِّف في أصول الفقه، بل وأول كتاب ألف في أصول الحديث أيضًا. ومع كونه كتاب فقه إلا أنه كتاب لغة وأدب وثقافة أيضًا، وذلك أن الشافعي اشتهر بأدبه وبلاغته. وتكلم فيه الشافعي عن العام والمخصوص، والناسخ والمنسوخ، والاستحسان وغيرها من أبواب الأصول. وتعتبر كتب أصول الفقه والحديث عالة على هذا الكتاب.

(٢) المزني: هو أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني، كان فقيها عالمًا عابدًا عارفًا بوجوه الجدل، حسن البيان. قال عنه الشافعي وهو في سن الحداثة: "لو ناظر المزني الشيطان لقطعه". كما قال فيه الشافعي: "ناصر مذهبي". له في مذهب الشافعي كتب كثيرة منها: المختصر، والمختصر الصغير.

(٣) ابن عابدين: حاشية رد المحتار ١/ ٢٩.

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانيًا: العهد القديم

ثالثًا: المصادر والمؤلفات الحديثة

- ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد الكوفي: المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الجزري: أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الفكر - بيروت.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي: صفة الصفوة، تحقيق محمود فاخوري، ومحمد رواس قلعه جي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي: زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.
- ابن حبان: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق شعيب الأرناءوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م.
- ابن حجر العسقلاني: المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، تحقيق غنيم عباس غنيم، وياسر إبراهيم محمد، دار الوطن - الرياض، ١٤١٨هـ.
- ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.
- ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتاب العربي - بيروت.
- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد الشيباني: المسند، مؤسسة قرطبة - القاهرة.
- ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن منيع: الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.

- ابن سيد الناس، محمد بن عبد الله بن يحيى: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر - بيروت، ١٤٠٦هـ.
- ابن عابدين: حاشية رد المحتار على الدر المختار، دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت، ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م.
- ابن عاشور، محمد الطاهر: تفسير التحرير والتنوير، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، طُبع مع الإصابة، دار الكتاب العربي - بيروت.
- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر: زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق مصطفى عطا، دار الكتب العلمية.
- ابن كثير: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة - بيروت، ١٣٩٦هـ = ١٩٧١م.
- ابن كثير، الحافظ أبو الفداء إسماعيل: تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.
- ابن كثير، الحافظ أبو الفداء إسماعيل: البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.
- ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني: سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر - بيروت.
- ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق محمد فهمي السرجاني، المكتبة التوفيقية - القاهرة.
- أبو البركات النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- أبو السعود، محمد بن محمد العمادي: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم،

دار إحياء التراث العربي - بيروت.

- أبو جعفر الطحاوي: مشكل الآثار، دار الكتب العلمية - بيروت.
- أبو جعفر النحاس: معاني القرآن الكريم، تحقيق محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى - مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي: سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.
- أبو داود، سليمان بن داود الطيالسي: مسند أبي داود الطيالسي، دار المعرفة - بيروت.
- أبو نعيم الأصفهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.
- أبو نعيم الأصفهاني: دلائل النبوة، تحقيق محمد رواس قلعه جي، وعبد البر عباس، دار النفائس - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.
- أبو يعلى: مسند أبي يعلى، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م.
- أحمد عبد الرحمن البنا (الساعاتي): الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد، مطبعة الإخوان المسلمين، ١٣٥٣هـ.
- الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد: تهذيب اللغة، تحقيق رياض قاسم، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- إسرائيل ولفنسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، دار ومكتبة بيبليون.
- أكرم ضياء العمري: المجتمع المدني في عهد النبوة، المجلس العلمي لإحياء التراث، ضمن سلسلة منشورات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.
- الألباني، محمد بن ناصر الدين: صحيح الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف -

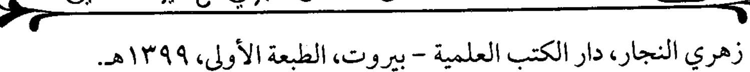
الرياض، الطبعة الخامسة.

- الألباني، محمد بن ناصر الدين: صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي.
- الألباني، محمد بن ناصر الدين: السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف - الرياض.
- الألوسي، محمود أبو الفضل: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- البابائي، إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة بإستانبول، ١٩٥١م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل: الأدب المفرد، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح المختصر، تحقيق مصطفى ديب البُغَا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م.
- البزار، أحمد بن عمرو: مسند البزار، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
- البغوي: معالم التنزيل، تحقيق محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.
- البيضاوي، أبو الخير ناصر الدين عبد الله بن عمر: تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الكتب العلمية - بيروت.
- البيهقي: السنن الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: دلائل النبوة، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى السلمي: الجامع الصحيح، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

- الجزري، أبو السعادات المبارك بن محمد: النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.
- جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: تفسير الجلالين، دار الحديث - القاهرة، الطبعة الأولى.
- الحاكم: المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ = ١٩٩٠م.
- الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله: معجم البلدان، دار الفكر - بيروت.
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف - الرياض، ١٤٠٣هـ.
- الخطيب التبريزي، محمد بن عبد الله: مشكاة المصابيح، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، ١٩٨٥م.
- خير الدين الزركلي: موسوعة الأعلام، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الخامسة، أيار (مايو) ١٩٨٠م.
- الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن: سنن الدارمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي، وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان: الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، تحقيق محمد عوامة، وأحمد محمد نمر الخطيب، دار القبلة للثقافة الإسلامية - جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م.
- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان: تذكرة الحفاظ، إعانة وزارة معارف الحكومة العالية الهندية، دار إحياء التراث العربي.
- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، دار الكتب

العلمية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

- الزَّبيدي، أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني: تاج العروس من جواهر القاموس، دار ابن حزم - بيروت.
- الزيلعي، أبو محمد عبد الله بن يوسف الحنفي: نصب الراية لأحاديث الهداية، تحقيق محمد يوسف البنوري، دار الحديث - مصر، ١٣٥٧هـ.
- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن: الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام، دار الكتب العلمية - بيروت.
- سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الشرعية الحادية عشرة، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر - بيروت، ١٩٩٣م.
- الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تصحيح وضبط أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق تركي فرحان المصطفى، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم، دار الوفاء - المنصورة، الطبعة السابعة عشرة، ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.
- الطبراني: المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم - الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٣م.
- الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة: شرح معاني الآثار، تحقيق محمد



زهري النجار، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.

- عبد الرزاق أبو بكر بن همام الصنعاني: مصنف عبد الرزاق، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- عبد بن حميد: المنتخب من مسند عبد بن حميد، تحقيق صبحي البدري السامرائي، ومحمود محمد خليل الصعيدي، مكتبة السنة - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.
- فاروق حمادة: العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، دار القلم - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.
- الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، مطبعة دار المأمون، الطبعة الرابعة، ١٣٥٧هـ.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- القنوجي، محمد صديق خان بن حسن بن علي: أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، تحقيق عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٧٨م.
- مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي: الموطأ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- محمد حسن شراب: المعالم الأثيرة في السنة والسيرة، دار القلم - دمشق، ١٤١١هـ = ١٩٩١م.
- مسلم بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- الميداني، أحمد بن محمد النيسابوري: مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت.
- النسائي، أحمد بن شعيب: سنن النسائي الكبرى، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى،

١٤١١هـ = ١٩٩١م.

- نظمي لوقا: محمد الرسالة والرسول، دار الكتب الحديثة - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٥٩م.
- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.
- هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، تحقيق أحمد سعد حمدان، دار طيبة - الرياض، ١٤٠٢هـ.
- الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الفكر - بيروت، ١٤١٢هـ.
- الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق صفوان داودي، دار الكتب العلمية - بيروت.

* * *

الفهارس

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام المترجم لها

فهرس الأماكن



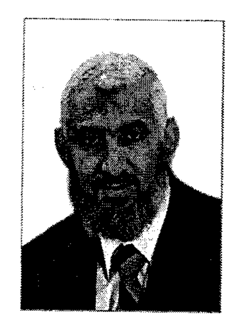
فهرس الغزوات والمعارك

***

فهرس الموضوعات



الأستاذ الدكتور راغب السرجاني



الأستاذ الدكتور راغب السرجاني: وُلِدَ عام ١٩٦٤م بمصر، وتخرَّج في كلية الطب جامعة القاهرة بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف عام ١٩٨٨م، أتمَّ حفظ القرآن الكريم عام ١٩٩١م. ثم نال درجة الماجستير عام ١٩٩٢م من جامعة القاهرة بتقدير امتياز، ثم الدكتوراه بإشراف مشترك بين مصر وأمريكا عام ١٩٩٨م (في جراحة المسالك البولية والكلى).

- أستاذ بكلية الطب جامعة القاهرة.
- رئيس مجلس إدارة مركز الحضارة للدراسات التاريخية بالقاهرة.
- صاحب فكرة موقع قصة الإسلام والمشرف عليه (أكبر موقع للتاريخ الإسلامي) www.islamstory.com.
- باحث ومفكر إسلامي، وله اهتمام خاص بالتاريخ الإسلامي.
- ينطلق مشروعه الفكري «معًا نبني خير أمة» من دراسة التاريخ الإسلامي دراسة دقيقة مستوعبة، تحقق للأمة عدة أهداف؛ منها:

- استنباط عوامل النهضة والاستفادة منها في إعادة بناء الأمة.
- بعث الأمل في نفوس المسلمين، وحثهم على العلم النافع والعمل البناء؛ لتحقيق الهدف.
- تنقية التاريخ الإسلامي وإبراز الوجه الحضاري فيه.

- وعلى مدار سنوات عديدة كانت له إسهامات علمية ودعوية؛ ما بين محاضراتٍ وكتبٍ ومقالاتٍ وتحليلاتٍ؛ عبر رحلاته الدعوية إلى شتى أنحاء العالم.

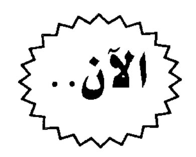
- صَدَرَ له حتى الآن ٣٣ كتابًا في التاريخ والفكر الإسلامي؛ هي:

١) (من هو محمد ﷺ): الحائز على جائزة المركز الإسلامي لدعاة التوحيد والسُّنَّة عام ٢٠١٠م.
٢) (ماذا قدم المسلمون للعالم.. إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية): الحائز على جائزة مبارك للدارسات الإسلامية عام ٢٠٠٩م.
٣) (الرحمة في حياة الرسول ﷺ): الحائز على جائزة المركز الأول في مسابقة البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ عام ٢٠٠٧م.
٤) المشترك الإنساني.. نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب
٥) أليست نفسًا.. جمال التعامل النبوي مع غير المسلمين
٦) قصة الأندلس
٧) قصة الإمام محمد بن عبد الوهاب
٨) قصة التتار من البداية إلى عين جالوت
٩) قصة الحروب الصليبية من البداية إلى عهد عماد الدين زنكي
١٠) العلم وبناء الأمم – دراسة تأصيلية في بناء الدولة وتنميتها
١١) روائع الأوقاف في الحضارة الإسلامية
١٢) أخلاق الحروب في السنة النبوية
١٣) قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية
١٤) فلسطين.. واجبات الأمة
١٥) وشهد شاهد من أهلها
١٦) رحماء بينهم – قصة التكافل والإغاثة في الحضارة

١٧) بين التاريخ والواقع – أربعة أجزاء
١٨) رمضان ونصر الأمة
١٩) أمة لن تموت
٢٠) رسالة إلى شباب الأمة
٢١) كيف تحافظ على صلاة الفجر
٢٢) كيف تحفظ القرآن الكريم
٢٣) القراءة منهج حياة
٢٤) المقاطعة.. فريضة شرعية وضرورة قومية
٢٥) أخي الطبيب قاطع
٢٦) أنت وفلسطين
٢٧) فلسطين لن تضيع.. كيف؟
٢٨) لسنا في زمان أبرهة
٢٩) إلا تنصروه ﷺ
٣٠) التعذيب في سجون الحرية
٣١) رمضان وبناء الأمة
٣٢) الحج ليس للحجاج فقط
٣٣) من يشتري الجنة

- يقدم عدة برامج وحوارات على الفضائيات والإذاعات المختلفة؛ منها: اقرأ، الرسالة، الحوار، الناس، القدس، المستقبل، العربية، الجزيرة، الجزيرة مباشر، والسودان، وإذاعة أم القوين، وإذاعة القرآن الكريم بفلسطين والأردن ولبنان والسودان والإمارات، وغيرها.

- له مئات المحاضرات والأشرطة الإسلامية؛ يتحدث فيها عن السيرة النبوية والصحابة، وتاريخ الأندلس، وقصة التتار، وغير ذلك.



اشتر إصدارات المؤلف عبر شركة أقلام

٢١) المقاطعة.. فريضة شرعية وضرورة قومية

٢٢) أخي الطبيب قاطع

٢٣) أنت وفلسطين

٢٤) فلسطين لن تضيع.. كيف؟

٢٥) لسنا في زمان أبرهة

٢٦) إلا تنصروه ﷺ

٢٧) التعذيب في سجون الحرية

٢٨) رمضان وبناء الأمة

٢٩) الحج ليس للحجاج فقط

٣٠) من يشتري الجنة



www.aqlamonline.net

٣٢٩ ش بورسعيد - السيدة زينب القاهرة